الفصل السادس
الرسل من أولي العزم

١ - نوح عليه السلام.

٢ - إبراهيم الخليل عليه السلام.

٣ - موسى الكليم عليه السلام.

٤ - عيسى بن مريم عليه السلام.

٥ - محمد خاتم النبيين عليه السلام.

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام

- ١ -

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾. من سورة العنكبوت: الآية (١٤)

نسبه: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ أي «إدريس». فإدريس جده الأكبر. وينتهي نسبه إلى «شيث» عليه السلام ابن آدم أبي البشر، وبينه وبين آدم ما يزيد على ألف عام، ورواية التوراة تذكر أن بينهما (١٠٥٦) عاماً.

رواية البخاري: روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام).

قال ابن كثير في (البداية والنهاية) ما نصه: فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتباره ما قيّد به ابن عباس من الإسلام. إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث (أبي أمامة) يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كانوا كلهم على الإسلام، وحديث أبي أمامة رواه (ابن حبان) في صحيحه وهو: «أن رجلاً قال يا رسول الله: أنبيٌّ كان آدم؟ قال: نعم مكلَّم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون». قال (ابن كثير): وحديث ابن عباس يردُّ على من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب، أنَّ قابيل وبنيه عبدوا النار.

ذكر نوح في القرآن:

ذُكرَ (نوح) عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم.. وذكرت قصته مفصلة في القرآن في كثير من السور الكريمة، منها: الأعراف: وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، وذكرت له سورة خاصة تسمى (سورة نوح) وكلها تشير إلى بعثته ورسالته وطريق دعوته، وإلى ما لاقاه من قومه من جحود وعصيان، وإلى صبره الطويل على الإيذاء، وإلى العذاب الذي حلّ بالمكذبين وهو (الغرق) وإلى نجاة من آمن به على ما يأتي بيانه عند تفضيلِ قصته عليه الصلاة والسلام.

نوح أول رسول إلى الأرض:

يذكر المؤرخون أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بعثه الله سبحانه إلى أهل الأرض، وقد أمره ربه أن ينذر قومه ويحذّرهم عذاب الله، فكان نوح أوّل نذير وأوّل رسول كما قال سبحانه:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ويستدلّون على ذلك بالحديث المروي في الصحيحين وهو حديث الشفاعة، وفيه أن النبي ﷺ قال:

«يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناسَ من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس ألا ترون ما أنتم عليه، ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيقول بعضهم لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام: إن ربي قد

---

(١) سورة نوح: الآية (١).

غضب اليوم غضباً لم يغضب قبلَه مثلَه ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، وإنَّه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري إلى نوح **فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أوّل الرسل إلى أهل الأرض** وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عزّ وجل فيقول: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي، نفسي[1]. . .) إلخ الحديث.

وهذا الذي ذكروا من أن نوحاً عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض هو الصحيح الذي عليه الأكثرون ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يسبقه بعثة أحد من الأنبياء قبله، فشيث وإدريس، وآدم، أنبياء وكلهم قد بُعثوا قبله، ولكنهم لم يكونوا رسلاً، فهو بهذا الاعتبار أوّل رسول وليس أوّل نبي، ومعلوم أن هناك فرقاً بين النبوة والرسالة، فالرسول هو الذي أُوحيَ إليه بشرعٍ وأُمر بتبليغه، وأما النبيُّ فهو الذي أُوحي إليه بشرعٍ ولكن لم يُؤمر بتبليغه، والله أعلم.

المدة التي عاشها نوح:

عاش نوح عليه السلام طويلاً وعمّر كثيراً، وكان أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم جهاداً فقد تحمّل من الأذى ما لم يتحمله أحد من الرسل، فدعا قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً وأقام فيهم (٩٥٠) تسعمائة وخمسين عاماً يذكّرهم ويعظهم، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ولكنه لم يلْقَ من قومه إلا كل تكذيب واضطهاد، وصدود وإعراض، فقد كانت قلوبهم أشدّ من الحجارة، وعقولهم أصلب من الحديد. ومع طول المدة التي أقامها بينهم لم يؤمن برسالته إلا قليل كما قال تعالى: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن عدد الذين آمنوا معه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٢٦٤؛ ومسلم في الإيمان برقم ١٩٤؛ والترمذي في القيامة برقم ٢٤٣٦؛ وانظر: تمام الحديث في جامع الأصول ١٠/٤٨٢.

كانوا عشرة وهم الذين ركبوا معه في السفينة، وذكر آخرون أنهم كانوا أربعين، والرواية الصحيحة التي وردت عن ابن عباس أنهم كانوا (٨٠) ثمانين نفساً معهم نساؤهم، وهذا أكثر أقوال المفسرين في الذين آمنوا معه، وهم الذين نجوا من الغرق، ومنه يظهر مدى المشقة التي نالها نوح عليه السلام في هذا الكفاح المرير، والأهوال التي نالها في هذه الفترة الطويلة التي عاشها من عمره، وهي سلسلة من حياة قاسية مليئة بالكفاح والنضال، والعذاب والبلاء لا يقدر على تحملها البشر إلا أولو الصبر من الأنبياء ولهذا كان (نوح) عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الذين ذكرهم الله في قوله لسيد الخلق ﷺ: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ وأمره بالسير على نهجهم وهم خمسة (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن نوحاً عليه السلام لما بعثه الله إلى قومه كان عمره (٥٠) خمسين سنة ومكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة ثم عاش بعد هلاك قومه (٣٥٠) ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون عمره على ذلك ألفاً وثلثمائة وخمسين سنة (١٣٥٠)، وهذا الرأي قد يكون منقولاً عن التوراة، كما هو عادة مبالغ فيه كبقية الأخبار التي تذكرها التوراة، مما لا يمكن الاطمئنان التام إليه، والذي نقطع به ما ذكره القرآن الكريم ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ فهذا قطعي الدلالة، ثابت ثبوت اليقين، ولسنا بحاجة إلى غيره من الأخبار.

قوم نوح يعبدون الأصنام:

تشير الآيات الكريمة في قصة نوح عليه السلام أنه بُعث إلى قوم قد أشركوا بالله وعبدوا الأوثان والأصنام واتخذوا آلهة من دون الله، اعتقدوا أنها تضر وتنفع وتبصر وتسمع وأنها تستطيع أن تجلب لهم الخير وتدفع عنهم السوء وتغني عنهم من دون الله. وهم أول قوم عبدوا الأصنام وأشركوا بالله ولهذا بعث الله سبحانه إليهم نوحاً عليه السلام بالإنذار والتخويف كما قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . . . ﴾ الآية[1].

وقد كان الناس قبل قوم نوح على دين الفطرة يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ولا يعرفون أوثاناً أو أصناماً وكانوا مؤمنين مقرين بوحدانية الله فلهذا لم يبعث لهم رسولاً ينذرهم ويحذّرهم، وأول رسول بعث بالإنذار والتخويف هو نوح عليه السلام أرسل إلى قوم يُدعون (بني راسب) كانوا قد راسخوا في الضلال، وازدادوا في الغيِّ والعناد، وعتوا عتواً كبيراً، فجاءهم بالدلائل الواضحات، والبراهين الساطعات، فما لقي منهم إلا كل صدود وإعراض، وتسفيه وتضليل، وسخرية واستهزاء، اقرأ إن شئت هذه الآيات الكريمة من سورة نوح:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا . . . ﴾ الآيات[2].

ومما يدل على أن الناس كانوا مؤمنين قبل قوم نوح لا يعرفون الوثنية والإشراك قوله تعالى في بيان أسباب بعثة الرسل:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ . . . ﴾ الآية[3].

روي عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة أنه قال: كان بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿كانَ الناسُ أمّة واحدة فاختلفوا﴾.

---

(١) سورة نوح: الآيات (١ ــ ٣).
(٢) سورة نوح: الآيات (٥ ــ ٩).
(٣) سورة البقرة: الآية (٢١٣).

وروي عن قتادة قال: كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فكان أول نبي بعث نوحٌ عليه السلام.

كيف انتشرت الوثنية وسبب عبادة الأصنام:

قلنا فيما سبق: إن قوم نوح هم أول من عبد الأصنام وأن الناس قبلهم كانوا على التوحيد والإيمان لا يعرفون وثنية ولا يعبدون أصناماً، والدليل على أن قوم نوح كانوا يعبدون الأوثان هو ما ذكره الله جل ثناؤه في كتابه العزيز مخبراً عن نوح:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[1].

وهذه الأصنام كانت أسماء لأناس صالحين، أو أسماء لملائكة مقرّبين أراد قوم نوح أن يتذكروا أعمالهم الصالحة فاتخذوا لهم تماثيل زعماً منهم أنهم بذلك لا ينسون ذكراهم ويتأسون بهم في صالح الأعمال ومع مضي الأزمان عبدت هذه الاوثان.

روي في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأم سلمة وأم حبيبة لما رأتا الكنيسة التي بأرض الحبشة وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها جميلة قال: «أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، ثم صوَّرُوا فيه تلك الصورة، أولئك شرارُ الخلق عند الله عزّ وجل»[2].

وروى البخاري عن ابن عباس عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وداً ولا سُواعاً...﴾ قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أنِ انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون

---

(١) سورة نوح: الآيات (٢١ ــ ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب بناء المسجد على القبر، وانظر: فتح الباري ٣/٢٠٨.

فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تُعْبَدْ، حتى إذاهلك أولئك وتنسّخ ـ أي تقادم ـ العلم عُبدت)[1]. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

أقول: ومن أجل ذلك جاءت الشريعة الإسلامية الغرّاء تحظر التصوير باليد لكل ذي روح وتحرم اتخاذ التماثيل أياً كان الغرض منها. فقد روى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»[2]. وورد أيضاً فيه: «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلبٌ، ولا صورة، ولا تماثيل، ولا جُنُب»[3]. وجاء أيضاً قوله ﷺ: «من صوّر صورة عذبه الله بها يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»[4].

وكل ذلك سداً للذرائع وصيانة للعقيدة حتى لا يقع الناس في الوثنية كما وقع قوم نوح ثم انتقل الشر والفساد إلى غيرهم.

صبر نوح على تكذيب قومه له:

لقد كان جهاد نوح عليه السلام وصبره على إيذاء قومه بما لا طاقة لأحد على تحمله ولا قدرة له عليه. فقد كان جهاده جهاد الأبطال، وصبره صبر الجبال، أوذي، وعذّب، واضطهد وهو ثابتٌ لم يكفّ عن تبليغ دعوة الله لمدة تقارب ألف عام، ولم يضعف عن إبداء النصح والتذكير ابتغاء مرضاة الله، وقد استعمل المشركون معه صنوف الاستهزاء والبلاء ليصدوه عن دعوته فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات. اتهموه بأنواع الاتهامات! وافتروا عليه أنواع الافتراءات فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وصبراً وجهاداً، فكان من الأنبياء المقربين ومن أولي العزم الصابرين.

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس في كتاب التفسير «تفسير سورة نوح» وانظر: جامع الأصول.

(٢) الحديث أخرجه البخاري؛ ومسلم في كتاب اللباس؛ وأحمد في المسند ١/ ٣٧٥.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق؛ ومسلم في اللباس؛ وأحمد في المسند ١/ ٨٣.

(٤) الحديث أخرجه البخاري؛ وأبو داود، وانظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ١١/ ٧١٩.

أنواع الاتهامات لنوح عليه السلام:

١ ــ اتهم عليه السلام بالسفه والضلال. قال تعالى:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

٢ ــ واتهم أيضاً بالجنون وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾[2].

وأخبر القرآن عن لسانهم:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ . . . ﴾[3] الآية.

٣ ــ واتهم بكثرة الجدل وبالافتراء على الله وفي ذلك يقول القرآن الكريم حكاية عنهم:

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4].

٤ ــ وهُدِّد عليه السلام بالرجم قال تعالى:

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[5].

٥ ــ وقابلوه بالسخرية والتهكّم قال تعالى:

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٦٠ ــ ٦١).
(٢) سورة القمر: الآية (٩).
(٣) سورة المؤمنون: الآية (٢٥).
(٤) سورة هود: الآية (٣٢).
(٥) سورة الشعراء: الآية (١١٦).
(٦) سورة هود: الآية (٣٨).

وهكذا تفننوا في إيذائه واتهامه ليفلّوا من عزمه، وهذه الافتراءات والاتهامات سلاح يستعمله الفجرة في كل وقت وحين في وجه كل نبي كريم أو داعية مصلح، وهو ليس خاصاً بقوم نوح فقد قال المشركون لسيد الخلق محمد ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[1].

وقالوا أيضاً: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾. وقالوا كذلك: ﴿إِنَّ هذا لساحِرٌ كذّابٌ﴾ وهكذا يستعمل الأشرار والفجار هذا السلاح في وجه كل نبي وداعية. فينبغي أن يتنبّه الدعاة والمصلحون إلى هذا النوع من الحرب الباردة.

دعوة نوح عليه السلام لقومه:

حياة نوح عليه السلام حياة شاقة مريرة، ومحنته مع قومه محنة شديدة أليمة فقد أقام بينهم قروناً ودهوراً فلم ير إلا آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وعقولاً متحجرة. لقد كانت نفوسهم أيبس من الصخر وأفئدتهم أقسى من الحديد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير، وكلما ازداد لهم نصحاً ازدادوا له عناداً، وكلما ذكّرهم بالله زادوا ضلالاً وفساداً، وظلوا في طريق الضلال سائرين، لا يلتفتون إلى دعوة نوح، ولا يبالون بتحذيره وإنذاره، وقد أقام بينهم تسعمائة وخمسين عاماً داعياً، مذكّراً، ناصحاً، وسلك جميع الطرق الحكيمة لإنقاذهم من الضلال، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان فلم يفلح معهم أبداً، وكانت دعوته لهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع كل ذلك لم تَلِن قلوبهم، بل قابلوا الإحسان بالإساءة، واللطف بالشدة، ومالوا عليه بالضرب والأذى، وهو لا يفتأ يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

روى المفسرون أن نوحاً عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرّح ويخنقونه حتى يغشى عليه ثم يلفونه

(١) سورة الحجر: الآية (٦).

في حصير ويرمون به في الطريق ويقولون: إنه سيموت بعد هذا اليوم، فيعيد الله سبحانه إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلك، وهكذا بقي يؤذى ويعذّب وهو مع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعذاب وإنما كان يؤمّل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح، ويقول لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ويؤمن بالله ولكن مع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا القليل منهم، وكان كلما انقرض جيل جاء مَنْ بَعدَه أخبث وألعن، فقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به، وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بُنيَّ احذرْ هذا لا يغرّنك عن دينك وآلهتك، ولهذا دعا عليهم نوح بعد أن يئس من إيمانهم فقال:

﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1].

فكان بعد ذلك الطوفان.

روي عن ابن مسعود أنه قال: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[2].

نوح يصنع الفُلْك:

لما يئس نوح عليه السلام من إيمان قومه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمان، وأوحى الله سبحانه إليه بأنه لن يؤمن من قومه بعد هؤلاء المؤمنين أحد كما قال تعالى:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[3].

---

(١) سورة نوح: الآيتان (٢٦ ــ ٢٧).

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) سورة هود: الآية (٣٦).

عند ذلك التجأ إلى الله بالدعاء على قومه بالهلاك والدمار فاستجاب الله دعاءه وأعلمه بأنه سيهلكهم بالطوفان فلا يُبقي منهم أحداً، وأوحى إليه أن يصنع الفلك (السفينة) ليركب فيها هو وجماعته المؤمنين، ولم يكن لنوح ولا لغيره معرفة بصنع الفلك ولذلك أوحى الله إليه صنعها وعلّمه كيف ينبغي أن تكون، كما قال تعالى:

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[1].

وإنما أمره بعدم مراجعته في شأنهم لأن عذاب الله إذا جاء فلا يرد عن القوم المجرمين ولعلّه قد تدركه رقة عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالعيان.

وأخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة تحت أمر الله ووحيه، وجعل قومه يمرّون عليه فيهزأون عليه ويسخرون ويقولون له: يا نوح قد كنت بالأمس نبياً واليوم قد صرت نجاراً، ويجتمعون عليه وهم يضحكون، وهو جادٌ عليه السلام في عمله فكان يجيبهم بقوله:

﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[2].

ولما انتهى من صنعها أمره الله سبحانه أن يحمل معه أهله وجماعته المؤمنين وأن يحمل فيها من الحيوانات من كل صنف زوجين (ذكر وأنثى) اثنين، ومن سائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، ثم جعل له علامة وهو (فوران التنور)، والمراد به على رأي جمهور المفسرين وجه الأرض أي أن تنبع الأرض من سائر أرجائها فذلك وقت ركوب السفينة مع المؤمنين بعد ذلك سيكون الطوفان والغرق لجميع سكان الأرض ولا ينجو من الغرق إلا ركاب السفينة. فلما ظهرت

---

(١) سورة هود: الآية (٣٧).

(٢) سورة هود: الآيتان (٣٨ ــ ٣٩).

العلامة ركبوا في السفينة وأرسل الله من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القِرَب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها، كما قال تعالى في سورة القمر:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[1].

وارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً، وعمّ جميع الأرض طولها وعرضها، سهلها وحَزْنها، جبالها وقفارها، ولم يبق على وجه الأرض ممّن كان بها من الأحياء عين تَطْرف. فقد غمرهم الماء، وجرفهم الطوفان، ولم ينج إلا ركاب السفينة، ولهذا يسمى نوح عليه السلام (أبا البشر) الثاني لأن جميع أهل الأرض بعد الطوفان هم من نسل أهل السفينة الذين كانوا مع نوح، حتى ابن نوح الذي لم يؤمن بالله ولم يركب مع أبيه في السفينة كان من الهالكين، اقرأ هذا النص الكريم:

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة القمر: الآيات (٩ ــ ١٤).

(٢) سورة هود: الآيات (٤١ ــ ٤٤).

أولاد نوح عليه السلام:

كان لنوح عليه السلام أربعة أولاد هم (سام، وحام، ويافث، وكنعان) أما كنعان فقد هلك مع الهالكين لأنه كان من الكافرين وأبى أن يركب مع أبيه في السفينة، وقال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، فلم ينج من الغرق مع أنه صعد إلى أعلى جبل هناك، ولم يكتب الله له السعادة حتى يستجيب لنداء والده حين ناداه بقوله: يا بني اركب معنا بل ظن أنه سينجو بصعوده الجبل فباء بالخيبة والفشل، وحين دعا نوح ربه أن ينجي ولده هذا وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أهلي وإنّ وَعْدَكَ الحقُ وأنتَ أحكمُ الحاكمين﴾ عاتبه الله سبحانه بقوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وأما أولاده الثلاثة فنجوا وجاء من نسلهم أهل الأرض، فكل الخلائق ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين﴾، فسام هو أبو العرب، وحام هو أبو الحبش، ويافث هو أبو الروم، وقد ورد في ذلك بعض الأحاديث النبوية الشريفة منها ما رواه أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»[2]، وروى البزار في مسنده أن النبي ﷺ قال: «ولِدَ لنوحٍ سامٌ، وحامٌ، ويافث، فَوُلِدَ لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد ليافث يأجوج ومأجوج» إلخ.

انتهاء الطوفان بعد هلاك الكافرين:

وبعد أن غرق أهل الأرض ولم يبق على وجهها من الكافرين أحد أمر الله السماء أن تكف عن المطر، وأمر الأرض أن تبتلع المياه التي غمرتها وأن تعود

---

(١) سورة هود: الآيتان (٤٥ ــ ٤٦).

(٢) انظر مسند الإمام أحمد.

الحياة كما كانت على ظهر الأرض، وكانت السفينة قد وصلت إلى جبل يسمى (الجودي) وهو جبل عظيم إلى جانب دجلة (عند الموصل) في العراق وإلى ذلك تشير الآية الكريمة:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

هبوط أهل السفينة بعد نجاتهم إلى الأرض:

وحين استقرت السفينة بجبل (الجودي) أمر الله نوحاً ومن معه أن ينزلوا منها بسلام وأمان وبركات من العزيز الرحمن:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[2].

وكان نزولهم من السفينة (يوم عاشوراء) من المحرَّم بعد أن بقوا فيها (١٥٠) يوماً فصام نوح ذلك اليوم شكراً لله وأمر من معه من المؤمنين أن يصوموه، وقد توارث بنو إسرائيل صيام ذلك اليوم، وجاء الإسلام فأقر صيامه.

روي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة المنورة رأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا؟ قالوا: يوم صالح، هذا يوم نجّى الله تعالى فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، فقال ﷺ أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه»[3].

وأخرج الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «صيام يوم عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفّر السنة التي قبله»[4].

---

(١) سورة هود: الآية (٤٤).

(٢) سورة هود: الآية (٤٨).

(٣) الحديث أخرجه البخاري.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في سننه.

المدة التي أقاموها في السفينة:

ذكرنا فيما سبق أن مدة بقائهم في السفينة كانت مائة وخمسين يوماً وهذه الرواية منقولة عن ابن عباس رضي الله عنهما فإنه قال كما ذكره (ابن كثير) في البداية والنهاية: (كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وأنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وأن الله وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها إلى الجوديّ فاستقرت عليه)[1].

وقد توفي نوح عليه السلام بعد أن مكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة قبل الطوفان وعاش بعده مدة الله أعلم بها، وروي عن ابن عبّاس أنه عمّر أكثر من ألف سنة، وهي أطول حياة عاشها إنسان ولكنَّ الصحيح المقطوع بصحته ما ذكرناه وهو ما قصه القرآن الكريم أنه عاش مع قومه (٩٥٠) تسعمائة وخمسين عاماً. وقد دفن بقرب المسجد الحرام بمكة المكرمة على الراجح من الأقوال رحمه الله رحمة واسعة. ومن خصائصه أنه أول نبي من أنبياء الشريعة، وأطول الأنبياء عمراً، وشيخ المرسلين، وأنه أول نذير عن الشرك، وأول داع إلى الله، وقد سمّاه الله عبداً شكوراً، وجعله بعد محمد في الميثاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* * *

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/٩٨.

إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام

ـ ٢ ـ

حياته عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾.

من سورة مريم: الآية (٤١)

إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وهو الجد الأكبر لرسول الله ﷺ إذ هو من ولد إسماعيل، وإسماعيلُ هو ابن إبراهيم، فيكون إبراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله ﷺ، وقد خصّ الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أباً للأنبياء، وإماماً للأتقياء، وقدوة للمرسلين، واختاره من بين الرسل والأنبياء بالخُلّة والاصطفاء، فهو (خليل الرحمن) ومنه تناسل الأنبياء وتتابعوا عقب الأجيال، فجميع أنبياء بني إسرائيل من نسله لأنهم من أولاد (يعقوب بن إسحق) وإسحق هو ابن إبراهيم، فمن إبراهيم تتفرّع شجرةُ النبوة، حتى خاتم الرسل صلوات الله عليه من نسله لأنه من ولد إسماعيل قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وقد ابتلي الخليل عليه السلام بأنواع من الابتلاء، وامتُحن بضروب من الامتحان فصبر، وكان في إيمانه مثل الجبال الرواسخ، لم يتزعزع ولم يضطرب

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٧).

ولم يدخل إليه وهنٌ أو ضعف، وكان أشدّ هذه المحن عليه حين أُمِر بذبح ولده (إسماعيل)، ولكنه كان مثالاً للعبودية والطاعة، والإذعان لأوامر الله، ولهذا جعله الله قدوة للأنبياء، بل جعله أمةً بمفرده، قال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ولا عجب أن نرى الثناء العظيم من الله تعالى عليه فهو أبو الأنبياء، وإمام الأتقياء، ورمز الإيمان، ابتُليَ فصبر، وانتصر فشكر، فكان عبداً وفياً، ولذلك اختاره الله خليلاً:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[2].

نسب إبراهيم عليه السلام:

هو إبراهيم بن تارح، بن ناحور، بن ساروغ... ينتهي نسبه إلى (سام بن نوح) وبينه وبين نوح عليه السلام مدة تزيد على ألف عام، وهذا النسب هو الذي ذكره المؤرخون نقلاً عن التوراة وأنّ اسم أبيه هو (تارح)، وأما القرآن الكريم فقد ذكر أن اسم أبيه هو (آزر) وهذا هو الصحيح الذي يُعوّلُ عليه. وأما ما ذكره المؤرخون بناءً على ما في التوراة، فإنّ من المقطوع به عند المسلمين أن التوراة والإنجيل قد دخل إليهما تحريف كبير فلم يعد مجال للوثوق بما فيهما من النصوص، ومن العجب أن بعض المفسرين ساروا في ركاب المؤرخين فادعوا أن اسم أبي إبراهيم هو تارح وزعموا أن آزر هو عمّه، ولعل الذي دفعهم إلى هذا تنزيه ساحة إبراهيم عليه السلام أن يكون ــ وهو أبو الأنبياء ــ من والد مشرك واستعظموا الأمر، مع أنّ الأمر ليس فيه ما يخلّ بمقام إبراهيم أو ينقص من قدره، فإنّ الهداية بيد الله، يُضِلّ من يشاء ويهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين، فزوجة (فرعون) مؤمنة، وولد (نوح) كافر، ولم ينقص ذلك من قدر أحدٍ من الأنبياء شيئاً.

---

(١) سورة النحل: الآية (١٢٠).

(٢) سورة النساء: الآية (١٢٥).

وقد أخبرنا المعصوم ﷺ أن والد إبراهيم هو (آزر) وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «يَلْقى إبراهيم أباه (آزر) يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترةٌ وغَبَرة (أي سواد وغبار) فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك.. فيقول إبراهيم: يا ربِّ إنك وعدتني ألاّ تُخْزني يوم يبعثون، وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرّمت الجنة على الكافرين، ثم يقول لإبراهيم: انظر ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذبح متلطّخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار...»[1]. فهذا الحديث نصّ على أن اسمه آزر وهو الحق الذي لا محيد عنه.

قال (ابن كثير) رحمه الله ما نصه:

﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ أتتخذُ أصْناماً آلهة؟...﴾ الآية. وهذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم (آزر) وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه (تارح) وأهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة فقيل: إنه لُقّبَ بصنم كان يعبده اسمه آزر، وقال (ابن جرير): والصواب أن اسمه آزر كما ذكر القرآن، ولعلّ له اسمان علمان أو أحدهما لَقَبٌ، والآخر علمٌ، وهذا الذي قاله محتمل والله أعلم[2].

كنية إبراهيم عليه السلام:

روى ابن عساكر عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى (أبا الضيفان) أقول: ولعل هذه التكنية إنما جاءته من كثرة ضيوفه فقد كان إبراهيم عليه السلام كريماً مضيافاً، لا ينزل به أحد إلاّ أحسن ضيافته وأكرم نُزله، وكان سخي النفس يذبح لضيوفه الشاء والنعم، وقد ذكر ابن جرير عن السّدي أنه قال: (كانَ إبراهيم كثيرَ الطعام يطعم الناس

---

(١) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٨٧؛ ومسند أحمد ٤/٥٣.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/١٤٢.

ويضيفهم . . .) إلخ . وقد ذكر القرآن الكريم قصته مع ضيوفه (الملائكة) حين جاءوا لإهلاك قوم (لوط) فمرّوا على إبراهيم في طريقهم ليبشّروه بغلام، فلما رآهم ظنهم من البشر فأسرع إلى أهله فذبح لهم عجلاً ثم شواه وقدّمه لهم فلم يأكلوا، فوقع في نفسه الريبة منهم، وأخذ ينظر إليهم بغرابةٍ وحذرٍ، حتى أخبروه أنهم من الملائكة، قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1].

فهذه الآيات الكريمة صورة ناطقة عن كرم (إبراهيم) الخليل حين كان يذبح لضيوفه الإبل والبقر مع أنه لايعرفهم، ولكنها أخلاق العظماء وصفات الكرماء، ولقد اقتبس العرب هذه الخصلة الحميدة من (إسماعيل) بن إبراهيم الذي عرف بالجود والكرم، (ومن يشابه أبه فما ظلم).

ولادة إبراهيم عليه السلام:

يذكر بعض المؤرخين أن إبراهيم عليه السلام ولد بغوطة دمشق في قرية يقال لها: (برزة) في جبل (قاسيون) والصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ أنه ولد (ببابل) وهي أرض الكلدانيين في العراق. قال (ابن كثير) بعد أن ذكر الرواية الأولى: والصحيح أنه ولد بـ (بابل) وإنما نسب إليه هذا المقام (يعني ولادته بغوطة دمشق) لأنه صلّى فيه إذ جاء معيناً لابن أخيه (لوط) عليه السلام[2].

ولد إبراهيم عليه السلام بعد أن بلغ والده من العمر ٧٥ سنة، وكان هو الولد الأكبر لآزر، وقد جاء من بعده أخواه (ناحور) و (هاران) وولد (لهاران) (لوط) عليه

---

(١) سورة الذاريات: الآيات (٢٤ ــ ٢٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/١٤٣.

السلام فهو ابن أخ إبراهيم، وأهل الكتاب يقولون إن إبراهيم هو الولد الأوسط، وإنّ (هاران) مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل، والصحيح الأول.

وقد تزوج إبراهيم عليه السلام حين شبّ وكبر بامرأة تدعى (سارة) وكانت سارة عاقراً لا تلد، وهاجر إبراهيم عليه السلام مع والده وزوجته فخرجوا من أرض الكلدانيين (أرض العراق) إلى أرض الكنعانيين وهي (بلاد المقدس) فأقاموا (بحَرّان) وهي بلدة قريبة من الشام، وكان أهلها يعبدون الكواكب السبعة وكان أهل الشام وأهل الجزيرة ــ كما يروي ابن كثير ــ على هذه العقيدة الضالّة يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة، ولهذا كان على كلّ بابٍ من أبواب دمشق السبعة القديمة (هيكل) لكوكب فيها، وكانوا يعملون لها أعياداً وقرابين، وهكذا كان أهل (حرّان) يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض ــ في ذلك الزمان ــ كانوا كفاراً سوى إبراهيم عليه السلام وامرأته (سارة) وابن أخيه (لوط) عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل ذلك الضلال، حيث بعثه الله بالحجة الدامغة والبرهان القاطع، وآتاه رشده منذ الصغر، فكان قويّ العزيمة، ثاقب النظر، يجادل قومه ويناظرهم فيقيم عليهم الحجّة ويدمغهم بالبرهان الذي أيده الله تعالى به فلا يستطيعون له رداً.

دعوة إبراهيم لأبيه آزر:

قصّ علينا القرآن الكريم دعوة (إبراهيم) عليه السلام لأبيه، فقد كان أبوه مشركاً ممن يعبد الأصنام، وأحق الناس بإخلاص النصيحة له إنما هو أبوه، ولهذا لم يألُ الخليل جهداً في تذكير أبيه ونصحه، وتحذيره من عذاب الله، وقد كان إبراهيم في دعوته لأبيه مثالاً للولد البارّ الذي لا يريد إلا الخير بأقرب الناس إليه، فلم يقسُ عليه في الكلام، ولم يعنّفه أو يزعجه، بل إنه خاطبه بكل أدب ووقار وجادله بألطف عبارة وأحسن إشارة، فبيّن له في محاورته ومجادلته بطلان ما هو عليه

من عبادة أوثان وأصنام، لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً، وذكّره بأنّ هذه الأصنام إذا لم تستطع أن تدفع الضُّرَّ عن نفسها ولا أن تجلب الخير والنفع إليها فكيف تستطيع أن تدفعه عن غيرها، أو كيف تستطيع أن تحقّق لعابدها ما يرجوه منها مع أنها تفقد القدرة والقوة على عمل شيء من الأشياء؟ وهكذا مضى إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه بالحكمة والموعظة الحسنة في أدب ووقار، ولكن أباه لم يستجب لهذا النصح، ولم يعتبر بمنطق الحجة والبرهان بل أصرّ على الضلال والعناد، وهدّد ولده بالقتل والضرب فيما إذا عاد إلى ذكر آلهته المزعومة بالسوء أو الشرّ اقرأ قوله تعالى في سورة مريم:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[1].

وقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه، كما وعده فطلب له من ربه المغفرة والرضوان، ﴿واغْفِرْ لأبي إنهُ كانَ منَ الضّالين﴾ وكان هذا الاستغفار طمعاً من إبراهيم في إيمان أبيه، ولكنّه حين ظهر له إصرار أبيه على الشرك والوثنية، وعداوته المتأصلة لدين الله، عند ذلك تبرأ إبراهيم من أبيه وقطع صلته به، اقرأ قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[2].

---

(١) سورة مريم: الآيات (٤١ ــ ٤٧).

(٢) سورة التوبة: الآية (١١٤).

وفي هذا درس بليغ لأهل العقيدة والإيمان، ليقتدوا بالرسل الكرام، ويسيروا على نهجهم الكامل وسيرتهم العطرة، فإبراهيم يتبرأ من أبيه ونوح يتبرأ من ابنه، وهذا هو كمال الإيمان، فليس هناك صلة أقدس أو أعظم من أخوّة الدين لأن رابطة الدين فوق رابطة النسب، وهذه هي المُثُل الكاملة في دعوة أنبياء الله، استمع إلى قوله تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[1].

أفليس في هذا برهاناً واضحاً على صدق إيمان الخليل عليه السلام؟ أوليس في تبرّئه من أبيه ومجاهرته بالعداء، ما يثبت انقطاع الصلة بين الوالد وولده حينما تنعدم روابط الإيمان؟ ولكن لا عجب فإنه إبراهيم الخليل أبو الأنبياء الذي ضرب أروع الأمثلة في صدق العقيدة وصدق الإيمان، ولذلك استحق أن يكون خليل الرحمن.

نشأته بين قومه:

نشأ (إبراهيم): عليه السلام وسط بيئةٍ فاسدة يحكمها ملك طاغية، مستبد برأيه اسمه (النمروذ بن كنعان) قبض على زمام الملك في (بابل) وكان أهلها ينعمون برغد العيش، وظلال الأمن، غير أنهم كانوا يتخبطون في ظلام دامس من الشرك والوثنية، ينحتون الأصنام بأيديهم ثم يجعلونها أرباباً من دون الله.

ولما رأى (النمروذ) نفسه حاكماً مطلقاً، تحيط به قوة الملك والسلطان، والقوم حوله يتخبطون في الجهالات، أقام نفسه (إلهاً) ودعا الناس إلى عبادته، لأن عبادتهم للأصنام وجهلهم بصفات الإله سوّغت له هذه الدعوى الباطلة. فالأصنام

---

(١) سورة الممتحنة: الآية (٤).

لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضراً، وهو يطق، ويفكر ويدرك ويحس ويشعر، ويفيض عليهم الخير، ويدفع عنهم الشر، فلم لا يكون إلهاً؟ فهو أحق بالعبادة من هذه الأحجار التي عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله.

نشأ إبراهيم عليه السلام في هذا المحيط، وآتاه الله الرشد، وهداه إلى الحق، فعرف بصائب رأيه وثاقب فكره، أنّ الله تعالى واحد أحد، لم يلد ولم يولد، وأنه مهيمن على الكون، مسيطر على العالم، وأدرك أن هذه الأصنام التي يعبدونها، والتماثيل التي ينحتونها لا تغني عنهم من الله شيئاً، لذلك عزم على تخليص قومه من هذا الشرك وإنقاذهم من تلك الجاهلية العمياء.

كان إبراهيم مفعمَ القلب بالإيمان بربه، ممتلئاً بالثقة واليقين بوعد الله بالنصر له، موقناً بما أوحى الله تعالى إليه من أمر الغيب، وأمر الإيمان، ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وثقة ويقيناً بقدرة الله عز وجل، فطلب من ربه أن يريه الآية البيّنة على البعث، وأن يطلعه على النشور، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى بعد موتهم، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم، فخاطبه ربه بقوله:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

لقد آمن إبراهيم وصدّق، ولكن تاقت نفسه للعيان، وامتدت عينه للمشاهدة ليرى عجائب قدرة الله، ويبصر دقائق خلقه وتصويره، وليطمئن قلبه ويزداد يقينه، فأجاب الله سؤاله، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير ويضمّها إليه، ليتعرف أجزاءها، ويتأمل خلقها، ثم يذبحها فيجعلها أجزاءً، ويفرّقها أشلاء، ويجعل على كل جبلٍ منها جزءاً مختلطاً بغيره من الأجزاء، ثمّ يدعوهنّ إليه فيأتينه سعياً بإذن الله.. فلما فعل صار كل جزءٍ ينضمّ إلى مثله، وعادت الأشلاء كلٌ في مكانه، وسرعان ما سرت فيها الحياة، وسعت إليه بقدرة الله وهو يرى آياته البينة في الخلق والإبداع، سبحانه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، اقرأ قوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

مناظرة إبراهيم لقومه:

كان إبراهيم عليه السلام دائباً في الدعوة إلى الله، لا يفتأ يذكّر قومه وعشيرته بالرجوع إلى الله، دعا أباه إلى الإيمان فأبى عليه، ثم دعا قومه فتنكّروا لدعوته وسخروا من رسالته، ولكنّه كان رحيماً رفيقاً، وبرّاً تقياً، فلم يشأ أن يتركهم في ضلالهم يعمهون، بل عزم أن يمحو منهم تلك العقائد الباطلة، ويردّهم إلى رشدهم ولو ناله منهم أذى كثير، أو تعرضت حياته للخطر.

لقد كان إبراهيم ذكياً صائبَ الرأي، وقد علم أن (الحجة) و (البرهان) اللّفظيان وإن وضحا وضوح الصبح لا ينبتان نباتاً حسناً في هذه الأرض الجُرُز، ما لم يقارنهما الحسّ والبصر، لذلك فقد أراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم وأن يقرن حواسهم مع أفئدتهم، لعلهم يرجعون عن غيّهم، ويدركون بأنفسهم تفاهة ما هم عليه من عبادة حجارة لا تنفع ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً.

كان لقومه يوم عيد كبير، يخرجون فيه خارج المدينة، يقضون الأيام في التسلية والترويح عن النفس، فلما خرجوا لعيدهم طلبوا إليه أن يرافقهم، فأبى أن يصحبهم، وعزم على أن يهدم صرح آلهتهم، فتظاهر بالسّقم ــ ولم يكن به علة، ولكنه كان سقيم النفس من عبادتهم ــ ولمّا خلا له الجوّ مع أصنامهم، صار يلطمها بيده، ويركلها برجله، ثمّ تناول فأساً وهوى عليها يكسّرها، حتى جعلها (جُذاذاً) قطعاً صغيرة محطّمة، متناثرة هنا وهناك، وترك صنماً كبيراً لم يكسره ليقيم الحجة به عليهم، فعلّق في عنقه الفأس الذي كان قد حطّم به تلك الأصنام.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

عودة قومه من عيدهم:

رجع قومه من عيدهم وسرعان ما هرعوا نحو المعبد ـ كعادتهم ـ ليقدّموا فروض الولاء والطاعة لأصنامهم، ولكنهم ذُهِلوا وبهتوا من هول ما رأوا. لقد رأوا آلهتهم ركاماً وهشيماً، متناثرة في أطراف المعبد، يعلوها الذلّ والصغار فنادوا بصوت واحدٍ، اهتزت له جنبات الأرض: ﴿من فعلَ هذا بآلهتنا إنّهُ لمنَ الظالمين﴾.

وسكت الجميع هنيهة وهم في غمرة الذهول والخشوع، أمام هذه الآلهة المحطّمة، ثمّ انطلق صوت من بين أظهرهم يذكّرهم بتوعد إبراهيم لأصنامهم: ﴿قَالُوا سَمْعنا فتىً يذكُرُهُم يُقالُ لَهُ إبراهيم﴾، فلا بدّ أن يكون هو إذاً المحطّم للأصنام. اعتزموا على أن يوقعوا به أشدّ العذاب، وأن يجعلوه عبرةً لمن يعتبر، جزاء ما صنعت يداه، فنادوا بأن يأتوا به على أعين الناس، ليشهدوا عليه بمقالته، ويروا ما يحل به من شديد العقاب.

ولا شكّ أن اجتماع القوم في صعيدٍ واحد، كانت (أمنية) لسيدنا إبراهيم عليه السلام، ليقيم لهم الحجة على بطلان ما يعتقدون، ويريهم البرهان، على فساد ما هم عليه عاكفون. تقاطرت الوفود، وتكاثرت الجموع، كلّ يرغب في القصاص منه، ويود رؤية عقابه وعذابه، إرضاءً لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر منه، ثم جاءوا به وسط هذا الجمع الزاخر، وابتدأوا محاكمته على رؤوس الأشهاد.

المحاكمة:

تقدّم إبراهيم للمحاكمة، وهنا شخصت الأبصار لسماع الجواب والنقاش وعرضت عليه تلك الأسئلة: ﴿أأنْتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟﴾.

لقد كان إبراهيم حكيماً داهية، سار بهم في الجدال إلى ناحية أخرى، ليبلغ مقصده ويبلّغ رسالته، مهما كانت النتائج.. وجرَّهم بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه، ليلزمهم الحجة لعلهم يرجعون إلى صوابهم فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهم هذا، فاسألوهُم إن كانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

صفعهم بهذه الحجة الدامغة، التي نبّهتهم من غفلتهم، وأيقظتهم من غفوتهم، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وقالوا: ﴿إنّكم أنْتُمُ الظالمون﴾ لقد تركتموها لا حافظ لها ولا رقيب عندها فحطّمها من لا يؤمن بها.. ثم أدركتهم الحيرة وعقدت ألسنتهم فأطرقوا مفكرين، ثم توجّهوا بالكلام مع إبراهيم:

﴿لقدْ عَلمتَ ما هَؤلاء يَنْطِقُون!!﴾ لقد عرفت يا إبراهيم أنّ هذه الأصنام لا تردّ سؤالاً، ولا تسمع كلاماً، فكيف تأمرنا بسؤالها وهي حجارة صماء جامدة. فلما أقرّوا بعجز الآلهة، وقصورها عن معرفة ما يجري حولها، وجرّدوها من القدرة على دفع العدوان، وصدّ كيد المعتدين.. حينئذٍ ظهرت حجة إبراهيم واضحة، ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السويّ السليم، فأخذ يبكّتهم على جهلهم، ويوبّخهم على ثباتهم على باطلهم بعد وضوح الحق وسطوعه كالشمس في رابعة النهار:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

فلما غلبوا على أمرهم، وخافوا افتضاح حالهم، ولم تبق لهم حجة أو شبهة يكابرون بها، عمدوا إلى القوة يسترون بها هزيمتهم، ويخفون باطلهم فقالوا: ﴿حرّقوه وانصروا آلهتكُم إنْ كُنتُم فاعِلين﴾.

إبراهيم يلقى في النار:

أرادوا أن يحرّقوه عقاباً له، ولكن كيف يحرّقونه؟ لا بدّ أن يصلوه ناراً حامية تعادل لظى الحقد المتأجّج في صدورهم من جراء انتهاك حرمة آلهتهم المزعومة، وتحطيمها دون مبالاة.

شرعوا يجمعون الحطب من هنا وهناك، وجعلوا ذلك قرباناً لآلهتهم، وبراً بمعبوداتهم حتى إن المرأة كانت إذا مرضت نذرت إن عوفيت لتجمعنّ حطباً لحرق

(١) الآيات هنا كلها من سورة الأنبياء في قصة إبراهيم مع قومه، انظر: بداية الآيات من قوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبلُ وكنا به عالمين﴾ من (٥١ ــ ٧٠) في الصفحة التالية.

إبـراهيم. مكثوا مـدة يجمعون الحـطب حتى تراكمت أعـواده، وضاق المكـان بمـا جمعـوا، فأشعلوا النـار فيها فـاضطرمت وتـأجّجت، وعلا لهبهـا وسطـع ضـوءها ثمّ قيّدوه ورموا به فيها، ولكنّه كان في رعاية الله وكلأه، فلم تحرق منه النار إلا الوثاق، وجاءه النداء الرباني: ﴿قُلْنَا يا نارُ كُوني بَرْداً وسَلاماً على إبراهيم﴾.

وهكذا ظهرت آية الله الكبرى في حفظ عبده ورسوله (إبراهيم) الخليل عليه صلوات الله وردّ الله كيدهم في نحورهم ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾.

اقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات (٥١ ـ ٧٠).

زواج إبراهيم عليه السلام:

لمّا شب إبراهيم وكبر تزوج بامرأة تسمى (سارة) وكانت سارة امرأة عقيماً لا تلد، ولذلك تزوج معها (هاجر) أم إسماعيل عليه السلام ثم رزقه الله على الكبر ولداً من (سارة) يسمى (إسحٰق) وذلك بعد أن بشرتها الملائكة به فصكّت وجهها وقالت ﴿يا ويْلتى أألدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيءٌ عجيبٌ؟؟﴾ فأجابتها الملائكة:

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾[1].

وهكذا رزق الله إبراهيم الخليل ولداً من سارة على الكبر، فكان ذلك آية على قدرة الله تبارك وتعالى واستجابة لدعوة الخليل عليه السلام:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2].

وقد هاجر إبراهيم مع والده وزوجته فخرجوا من أرض (الكلدانيين) إلى أرض (الكنعانيين) وهي بلاد المقدس، فأقاموا قريباً منها في منطقة تسمى (حرّان) وفيها توفي والد إبراهيم وعمره حين الوفاة ٢٥٠ عاماً، وكان أهل (حرّان) يعبدون الكواكب السبعة فكانوا من الصابئة وقد انتشرت بينهم الوثنية وعبادة الأفلاك. قال (ابن كثير) في تاريخه:

والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين وهكذا

---

(١) سورة هود: الآيتان (٧٢ ـ ٧٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٣٩).

كان كلّ أهل حرّان يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته، وابن أخيه لوط عليهم السلام، وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذلك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً في كبره قال تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

مناظرة إبراهيم الخليل للنمروذ:

عاش إبراهيم الخليل في زمنٍ عصيب، كان الناس فيه على حياة الشرك وقمة الضلال، وقد ظهر في زمانه الملك الجبّار المتمرد، الذي ادّعى لنفسه الربوبية، ونازع الله في عظمته وسلطانه، فادّعى أنه الإله من دون الله، وهذا الجبّار يسمى (النمروذُ بن كنعان) وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة، فإنه قد ملك الدنيا ــ فيما ذكروا ــ أربعة: مؤمنان، وكافران.. أما المؤمنان فهما (ذو القرنين) الذي ذكره القرآن في سورة الكهف، و(سليمان بن داود) عليهما السلام. وأمّا الكافران فهما (النمروذُ) و (بختنصر) وأمّا غيرهم فلم يملك الدنيا وإنما ملك بلداً أو بلاداً منها مثل (فرعون) فقد كان يملك أرض مصر...[2].

وقد ذكر المؤرخون أن (النمروذ) هذا قد استمرّ في ملكه ٤٠٠ سنة وكان قد طغى وبغى، وتكبّر وتجبّر، وادّعى لنفسه الربوبية فناظره الخليل عليه السلام، فسفّه عقله وأبطل حجتّه وألقمه الحجر، وكانت أول مناظرة معه أنه حينما دخل عليه الخليل سأله (النمروذ): من ربّك يا إبراهيم؟ وهل لك ربّ غيري؟ فأجابه الخليل بكلام العقل والإيمان قال: ﴿ربي الذي يُحيي ويُميتُ﴾ أي إنه الإله العظيم القادر، الذي يحيي الإنسان من العدم ثم يميته ثم يبعثه فهو على كل شيء قدير،

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/١٣٢.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك للطبري ١/٢٤٠، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١/١٤٠.

فالإحياء والإماتة مظهر من مظاهر قدرة الله، ولكنّ النمروذ السفيه الأحمق ضحك منه ساخراً وعارضه بقوله: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ أي إنني أستطيع أن أفعل ما يفعله إلهك، قال له: وكيف؟ قال انتظر فدعى حاجبه فقال له: اذهب فائتني برجلين من السجن قد استوجبا القتل (أي حكم عليهما بالإعدام) فذهب الحاجب فأتى له برجلين فوقفا بين يديه فأمر الجلّاد أن يضرب عنق أحدهما فضربه فمات، فقال النمروذ هذا أمتّه وأمر بإطلاق سراح الثاني فأطلق فقال: وهذا أحييته.. وهكذا بمنتهى السخف والحماقة أراد أن يظهر قدرته على (الإحياء والإماتة) اللتان هما من خصائص قدرة الله ومن صفاته الأزلية، بهذه الطريقة السخيفة الهزلية، أعدم إنساناً فأماته، وعفى عن آخر فأحياه، وذلك هو منتهى الجهل والغباء.. فلما رأى الخليل عليه السلام حقارته وقلة عقله، وغباء تفكيره انتقل معه إلى أمر لا يمكنه اللجاج فيه والجدل لأنه أمر قاطع، يقصم ظهر المكابر، ويلجم كل معاند فقال له الخليل: ﴿إن الله يَأتي بالشمسِ منَ المشرقِ، فَأتِ بها مِنَ المغربِ﴾ وهنا الحجة الدامغة التي لا تنفع معها المجادلة والمكابرة، لأنها أمر بيّن: إن كنت حقاً إلهاً تستطيع أن تفعل كل شيء فغيّر نظام الكون، وغيّر نظام الحياة، أطلع الشمس من المغرب وهنا انقطع الجدل وبهت الذي كفر.. قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وهكذا جلجل صوت الحق وخفت صوت الباطل (فالحق أبلج والباطل لجلج).

وقد ذكر (السدّي) أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم والنمروذ يوم خروجه من النار ولم يكن اجتمع به قبل ذاك، فجرت يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٨).

رحلة إبراهيم إلى مصر:

عمَّ القحط وشمل الجدب بلاد الشام وفلسطين كلها، فرحل إبراهيم عليه السلام إلى مصر، تصحبه زوجه (سارة) وكانت سارة ذات جمال باهر، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك وكان رجلاً جباراً، وهو أحد ملوك العرب العماليق واسمه (سنان بن علوان) وكان من عادة هذه الطاغية الجبّار أنه لا يسمع برجلٍ عنده امرأة جميلة إلا وأخذها منه اغتصاباً، فلمّا نزل إبراهيم أرض مصر أراد هذا الفاجر أن يعتدي على (سارة) زوج إبراهيم ويستأثر بها لنفسه، فدعاه وسأله عمّا يربطها به من قرابة، فقال له إبراهيم هي (أختي) وقصد بذلك أخوّة الدين ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فأمر به فأخرج، فأتى (سارة) فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنّك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنّك أختي ـ فإنّك أختي في الإسلام ـ ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها الملك الجبار فأتي بها فلمّا دخلت عليه فتن بجمالها فسألها عن إبراهيم فأخبرته أنها أخته، ولكنّ الفاجر أراد بها السوء فمدّ يده إليها يريد أن يجذبها نحوه فيبست يده فلم يعد يستطع حراكها، واضطرب حتى كاد يصعق من شدة الهول والفزع، فقال لها: ادعي الله لي ولا أضرّك، فدعت الله فأطلق، فلما عاد إلى حالته الأولى حدثته نفسه الغدر بها مرة ثانية، فَأُخِذَ مثل الأولى أو أشدّ، فطلب منها أن تدعو الله له على أن يطلق سراحها ولا يمسها بسوء، فدعت الله فعاد كما كان، فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنّما أتيتني بشيطان، فأمر بها أن تطلق، وأخدمها جارية من جواريه تسمّى (هاجر) وكان إبراهيم من وقت ذهابها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله السوء، فلما أقبلت أومأ إليها إبراهيم بيده يسألها فقالت: ردّ الله كيد الكافر في نحره وأخدمني هاجر[1] قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء، فعصمها الله وصانها إكراماً لخليله عليه السلام[2].

---

(١) أي أعطاني هذه الجارية «هاجر» ومنحني إيَّاها كخادمة تخدمني.

(١) القصة رواها البخاري ومسلم وهي في كتب الصحاح، وانظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٨٨.

ولادة إسماعيل عليه السلام:

هاجر سيدنا إبراهيم من مصر إلى فلسطين ومعه زوجه (سارة) وأمتها (هاجر) وكانت سارة عقيماً لا تلد، وكان يحزنها أن ترى زوجها وحيداً ليس له ولد، وقد أصبحت هي على حال لا يرجى أن تأتي بعده بوليد، لأنها قد جاوزت سنّ السبعين، وبلغت من الكبر عتياً، فأشارت على زوجها أن يدخل بأمتها بعد أن وهبتها له، لعلّ الله يرزقه منها غلاماً زكياً تشرق به حياتهما ويكون عوناً لأبيه على تحمّل مشاق الحياة، فاستجاب إبراهيم لرأيها وخضع لإشارتها فلما تزوج (هاجر) أنجبت له غلاماً زكياً هو سيدنا (إسماعيل) عليه السلام الذي كان من نسله خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهناك انتعشت نفس إبراهيم بعد أن رزقه الله هذا الغلام على كبر من السن حيث كان قد بلغ من العمر ٨٦ سنة.. ولعلّ (سارة) قد شاركت إبراهيم في سروره، ولكنّ الغيرة لم تلبث أن دبّت إلى قلبها، بل عصفت بها أعاصير كثيرة من الحزن والألم، فحرمت الهدوء والهجوع، وأصبحت لا تطيق النظر إلى الغلام ولا تحتمل رؤية هاجر، فلم تجد دواء لقلبها العليل إلا أن تطلب من إبراهيم أن يقصيها هي وولدها عن دارها، وأن يبعدها عن عينها ــ وذلك لحكمة يريدها الله ــ وكان الله قد أوحى إليه أن يطيع أمرها، ويستجيب إلى رجائها.. فأخذهما إبراهيم وسار بهما يقطع الصحارى والقفار، حتى بلغ جبال مكة الجرداء، فوضعهما في ذلك المكان القفر، الذي ليس به ساكن ولا سمير، ولم يكن بمكة في ذلك الوقت أحد، ولم يكن بها دار أو بنيان، تركهما في ذلك المكان المقفر عند دوحة قرب زمزم، وترك لهما جراباً (أي كيساً) فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم أراد العودة إلى بلاد فلسطين، فلحقته أم إسماعيل وهي تقول: يا إبراهيم أين تتركنا في هذا المكان الذي ليس فيه سمير ولا أنيس؟ فجعل لا يلتفت إليها مخافة أن تصدّه عن تنفيذ أمر الله، وجعلت تكرّر القول وهو لا يلتفت فقالت له عند ذلك: «آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لن يضيّعنا الله».

الله أكبر.. إنه الإيمان الذي يصنع الأعاجيب ويأتي بالغرائب التي تكاد لا تصدّق، فكيف تطمئن نفس إبراهيم إلى أن يترك وليده الرضيع مع أمه في مكانٍ موحش قفر، ليس به ساكن ولا سمير ولا أنيس!!

وكيف رضيت (هاجر) أن تبقى وحيدة فريدة في بقعة جرداء، ليس فيها طعام ولا ماء، وتتعرّض للجوع القاتل، والعطش المميت، والذئاب الموحشة الضارية؟! إنه الإيمان الذي عَمَر قلبَ إبراهيم وزوجه «هاجر» عليهما السلام حتى ضحّيا براحتهما في سبيل تنفيذ أمر الله. ولمّا ابتعد إبراهيم عن زوجه وولده قليلاً التفت جهة البيت ووقف يدعو بهذه الدعوات:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

نبع زمزم وبناء البيت العتيق:

بقيت هاجر ترضع ولدها إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى نفد ما في السقاء، فعطشت وعطش ابنها وجعل ولدها يبكي يتلوّى من شدة العطش فانطلقت تفتش له عن ماء فوجدت (الصفا) أقرب جبلٍ يليها فصعدت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي، وسعت سعيَ المجهود حتى وصلت إلى جبل (المروة) فصعدت عليه ونظرت فلم تجد أحداً، فأخذت تذهب وتجيء بين (الصفا والمروة) سبع مرات، وبينما هي على المروة سمعت صوتاً فقالت: أغثنا إنْ كان عندك غواث، فرأت ملكاً ـ وهو جبريل ـ يضرب بعقبه ـ وقيل بجناحه ـ الأرض حتى ظهر الماء فنبعت زمزم، فجعلت أم إسماعيل تحوّط الماء وتغرف منه بسقائها وهو يفور بعدما تغرف،

---

(١) انظر: نصَّ الرواية في فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٩٦، فقد رويناها هنا بالمعنى، وهذه القصة من عجائب القصص، وفيها من نفائس الأخبار ما فيه برهان على الإيمان والوفاء.

ثمّ قال لها ذلك الملك: لا تخافي الضيعة (الضياع) فإنّ للّه ههنا بيتاً ـ وأشار إلى أكمة مرتفعة من الأرض ـ يبنيه هذا الغلام وأبوه.. ثم غاب الملك عنها، وبدأت الطير ترد إلى الماء وتحوم حوله ومرت قبيلة (جرهم) فرأوا الطير فاستدلوا على وجود الماء فوصلوا إلى (زمزم) واستأذنوا من أم إسماعيل أن يضربوا خيامهم قريباً منها فأذنت لهم واستأنست بوجودهم، ثم تكاثرت البيوت، وشبّ إسماعيل وتزوج من القبيلة وتعلّم العربية منهم وأصبحت مكة مأهولة بالسكان منذ ذلك الحين بعد أن كانت قفراً موحشاً. وتوفيت (هاجر) وإبراهيم عليه السلام لا يزال بعيداً عنها في أرض فلسطين، ثمّ بعد مرور سنين عديدة حنّ قلب إبراهيم إلى رؤية زوجه وولده فأخذ يقطع الصحارى والقفار حتى وصل إلى مكة فلم يجد زوجه، ووجد ولده يبري نبلاً، فلما رآه عرفه إبراهيم فعانقه وصنع به كما يصنع الوالد بولده ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك به ربك.. قال: وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإنّ الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار إلى التل المرتفع قرب زمزم، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل (إسماعيل) يأتي بالحجارة و (إبراهيم) يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (المقام) فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السميعُ العليمُ﴾ حتى انتهيا من بناء الكعبة المشرفة[1] ومنذ ذلك الحين عمرت مكة المكرمة حرسها الله.

قصة الذبيح إسماعيل:

رأى إبراهيم عليه السلام في منامه رؤيا ـ ورؤيا الأنبياء حق[2] ـ رأى أنّ الله تعالى يأمره بذبح ولده البكر (إسماعيل) عليه السلام الذي لم يكن له ولد غيره، وقد رُزِقَهُ على كِبَرٍ وشيخوخة، فما كان من إبراهيم عليه السلام بعد أن استيقظ من النوم إلّا أن سارع لتنفيذ أمر الله، دون تلكؤ أو تردّد، ولكنه أراد أن يختبر ولده،

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٦/٣٩٦ من فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

(٢) في الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «رؤيا الأنبياء وحي».

ويرى مقدار استجابته وطاعته لله فقال له:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾.

عرض عليه ذلك الأمر ليكون أطيب لقلبه، وأهون عليه من الأخذ بالقوة فبادر الغلام الحليم، سرّ والده الخليل إلى الطاعة، وأسرع إلى الإجابة، فقال:

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

برّ عظيم، وتوفيق من الله كبير، وإيمان يزعزع الجبال ــ من الوالد وولده ــ تظهر فيه «العبودية» لله على أكمل صورها، من الأب وابنه، الأب يؤمر فيسارع إلى تنفيذ أمر الله، والولد يستشار فيلبي طائعاً مستسلماً لحكم الله كأن الأمر جرعة من ماء. أراد الولد أن يخفّف عن أبيه لوعة الثُكل، ويرشده إلى أقرب السُبل، ليصل إلى قصده فقال: يا أبتِ اجعل لي وثاقاً، واحكم رباطي حتى لا أضطرب، واشحذ شفرتك، وأسرع إمرارها على حلقي، ليكون أهون عليّ، فإنّ الموت شديد، ووقعه أليم.. فقال له إبراهيم: «نِعم العون أنت يا بنيّ على تنفيذ أمر الله» ثمّ ضمه إلى صدره، وأخذ يقبّله ويودّعه الوداع الأخير.

ثم أسلم إبراهيم ابنه فصرعه على شقه، وأوثقه بكتافه، ووضع السكين على حلقه، وأمرّها فوق عنقه، ولكنها لم تقطع فقد انقلبت في يده وكأنها قطعة من الخشب، فقال له إسماعيل: يا أبتِ كبّني على وجهي، فإنك إذا نظرت إليّ أدركتك رحمة بي تحول بينك وبين أمر الله.. ففعل ثم وضع السكّين على قفاه فلم تمض الشفرة لأن الله تعالى قد سلبها خاصيّة القطع، عند ذلك جاء النداء الإلهي:

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

---

(١) سورة الصافات: الآيات (١٠٤ ــ ١٠٧).

من هو الذبيح؟

تقدّم معنا أن الولد الذي أمر بذبحه إبراهيم هو (إسماعيل) الذي هو من نسل (هاجر) وهذا هو الرأي الصحيح المعتمد الذي عليه أكثر العلماء، ذلك لأن هذه القصة وقعت في مكة، و(إسماعيل) هو الذي كان مقيماً بمكة، وإسحٰق لا يُعْلم أنه قدم مكة في حال صغره. . ويعتقد أهل الكتاب أن الذبيح (إسحٰق) لا إسماعيل وهو مردودٌ باطل لمخالفته لظاهر النصوص القرآنية.

يقول ابن كثير رحمه الله: والظاهر من القرآن بل كأنه نص صريح على أنّ الذبيح هو (إسماعيل) لأن الله تعالى ذكر قصّة الذبيح ثم قال: ﴿وبشرناه بإسحٰق نبياً من الصالحين﴾ فالبشارة كانت بعد تلك الحادثة التي ظهر فيها إيمان إبراهيم وطاعته لله فأكرمه الله بولدٍ آخر وبشّره بإسحٰق. ومن ادّعى أنه (إسحٰق) فقد اعتمد على رواياتٍ إسرائيلية، وكتابهم فيه تحريف، فإن عندهم في التوراة أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره وإسماعيل هو البكر، وإنما حملهم على هذا حسدُ العرب، فإنّ إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحٰق والد (يعقوب) وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا أن يجرّوا هذا الشرف إليهم فحرّفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بُهْتٌ، ولم يقرّوا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ومن قال من السلف بأنّ الذبيح هو (إسحٰق) فإنما أخذوه من (كعب الأحبار) أو صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه (إسماعيل) وما أحسن ما استدل به (القرظي) على أنه إسماعيل وليس إسحاق، وذلك من قوله تعالى: ﴿فبشّرناها بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب﴾ قال: فكيف تقع البشارة بإسحٰق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحٰق وهو صغير قبل أن يولد له، هذا لا يكون لأنه

يناقض البشارة المتقدمة[1].

«ويروى أن (عمر بن عبد العزيز) سأل يهودياً كان قد أسلم عن الذبيح الذي أمر إبراهيم بذبحه فقال: هو (إسماعيل) ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إنّ اليهود لتعلم بذلك، ولكنّهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله له، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحٰق لأن إسحٰق أبوهم[2].

وقد اشتهر أنّ النبي ﷺ يدعى ابن الذبيحين والمراد بهما (إسماعيل، وعبد الله).

وفاة سيدنا إبراهيم:

وقد عاش سيدنا إبراهيم ١٧٥ مائة وخمساً وسبعين سنة على أصح الروايات، بعد حياة حافلة بالكفاح والجهاد والصبر والابتلاء، ولذلك جعله الله أباً للأنبياء، واختاره لخلّته واصطفاه، لأنه كان مثالاً للعبد المنيب الأوّاه، المطيع لأوامر الله، ولهذا امتدحه الله وجعله قدوة للناس، بقوله تقدّست أسماؤه:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[3].

ولمّا انتقل إلى جوار الله دفنه ولداه في مغارة (المكفيلة) التي دفنت فيه «سارة» من قبل وهو في البلدة التي تسمى (الخليل) الآن وكانت تسمى من قبل (قرية أربع). أمّا إسماعيل فقد عاش ١٣٧ سنة ودفن بمكة قريباً من الحِجْر الذي بجوار البيت العتيق قرب أمه هاجر، صلوات الله عليهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) انظر: البداية والنهاية ١/١٥٨.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٦٠.

(٣) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام

ـ ٣ ـ

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾.

من سورة مريم: الآية (٥١)

ذكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كثير من سور القرآن الكريم بوجوه عديدة وأساليب متنوعة، كما ذكرت قصة (بني إسرائيل) مع موسى موضّحة، مفصّلة، مبيّنة على أجمل بيان، وأوضح تفصيل، وخاصةً في سورَتَيْ (الأعراف والقَصَص).

وقصةُ (موسى) عليه السلام مع (فرعون) ليست قصة فرد مع مَلِك وليست قصة نبيّ كريم مع جبّارٍ عظيم، إنما هي قصة تتكرّر في كل زمان ومكان، وتبرز في كل وقتٍ وحين، وهي تصوّر حقيقة واقعية أليمة.. تصوّر الصراع بين الحق والباطل، وتصوّر المعركة الضارية بين جند الرحمن، وجند الشيطان.. تلك المعركة التي قامت بين أولياء الله وأعداء الله، منذ فجر هذا الوجود، ومنذ أن ظهر على مسرح الحياة الدعاة والمصلحون، والأنبياء والمرسلون!.

لقد وقف «الطغيان» بجانب الكثرة الكثيرة من دعاة الباطل، ومن جند «إبليس» يتحدى الإيمان، ويتحدى التوحيد، ويتحدى الرسالات السماوية.. ووقف «الحق» بجانب القلة القليلة، من الصفوة الأخيار، من الأنبياء والمرسلين والدعاة والمصلحين. واحتدمت المعركة بين الإيمان والكفر، وبين الحق والطغيان وكانت

النتيجة أن انتصر الإيمان على الكفر وعلا الحق على الباطل، بعد صراع عنيف، وعِرَاك شديد وكان النصر بجانب أهل الإيمان وصدق الله حيث يقول:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾(١).

وهذه هي سنّة الله في الحياة ولن تجد لسنّة الله تبديلاً. لقد وقف الشرّ مجسّماً في صورة خصم عنيد، لا يلين، ولا يسالم.. بل يريد أن يقضي على دعوة ربانية تهدف إلى الخير، وتدعو إلى المحبة، والأخوة، والإنسانية، وتسعى لتحقيق العدل والسلام بين أهل الأرض قاطبة!.

وقف الشرّ مكشراً عن أنيابه، عابساً، مزمجراً، يتميّز غيظاً، يريد أن يبطش بتلك الصفوة الكريمة، الطاهرة، من أنبياء الله وأوليائه المقربين.. ويتمثل هذا بجلاء ووضوح فيما قصه علينا القرآن الكريم من إنذار وتهديد تعرّض له الرسل الكرام من جانب الطغاة والمجرمين، استمع إلى قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾(٢).

هذا هو منطق «الطغيان» في كل وقت وزمان، لا يفهم حجة ولا برهاناً ولا يقيم وزناً لمنطق أو عقل، إنما طريقه «البطش» و«الإرهاب»، والتعذيب والتنكيل، قال الله تعالى حكاية عن فرعون:

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

هذا هو منطق «فرعون» في زمن موسى.. وهو منطق «الفراعنة» في كل زمان ومكان. أمّا منطق الرسل فهو منطق العقل، ومنطق الحكمة، يتجلى في قول موسى عليه السلام لقومه بعد أن ذاقوا أنواع الأذى، وصنوف البلاء:

---

(١) سورة المؤمن: الآية (٥١).
(٢) سورة إبراهيم: الآيات (١٣ ــ ١٥).

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ومن هنا يتبين لنا وحدة الاتجاه، ووحدة الهدف في دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، كما يظهر لنا اتفاق دعاة الباطل وأهل الضلال على غاية واحدة، وهدف واحد، فهي إذاً صور تتكرر في كل وقت وحين للصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ونتيجتها أيضاً واحدة وهي انتصار أصحاب العقيدة وأهل الإيمان، وانهزام فئة البغي والعدوان، وتتمثل هذه النتيجة في قول الله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[2].

وهذه هي العبرة من قصة موسى مع فرعون، بل ومن قصص جميع الأنبياء والمرسلين.

نسب موسى عليه السلام:

نسبه: هو (موسى بن عمران) بن يصهر بن قاهث، وينتهي نسبه إلى يعقوب عليه السلام ابن إسحٰق بن إبراهيم عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام وأخوه هو «هرون» عليه السلام الذي بعثه الله عضداً ومعيناً لموسى حين أراد أن يبعثه إلى «فرعون» لتبليغه رسالة الله، وكان ذلك بدعوةٍ دعا بها موسى: ﴿واجعلْ لي وَزيراً مِنْ أهلي هرونَ أخي﴾.

ولادته: ولد موسى عليه السلام في عهد الطاغية الأكبر «فرعون» عدوّ الله، الذي اشتهر بالطغيان والجبروت، فنازع الله في ملكه، وادّعى الربوبية، وأعلن التمرد والعصيان وزعم أنه هو الإلٰه المعبود من دون الله، واسم ذلك الطاغية (الوليد بن مصعب) ولقبه «فرعون» وفرعون لقب لكل من ملك أرض مصر من

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٨).
(٢) سورة القصص: الآيتان (٥ ــ ٦).

الجبابرة، كما أن (كسرى) لقب لكل من ملك بلاد الفرس، و (قيصر) لقب لكل من ملك بلاد الروم.

تولى (فرعون) الملك بعد هلاك أخيه (قابوس) الذي دعاه (يوسف) عليه السلام إلى الإسلام فأبى وكان جباراً عنيداً، وقد التحق يوسف بجوار ربه في عهد (قابوس) وطال ملكه، واشتد أمره ثم هلك، فلما تولى الملك أخوه وهو (فرعون) شدَّد القبضة على بني إسرائيل، وأذاقهم أنواع العذاب وصنوف البلاء، حتى كاد يفني بني إسرائيل، وكان هذا الجبار أعتى من أخيه (قابوس) وأكفرَ وأفجر، وامتدت أيام ملكه وأقام بنو إسرائيل بعد وفاة (يوسف) عليه السلام وهم على بقايا من دين آبائهم وهو دين إبراهيم دين الحنيفية السمحة حتى تولى المُلكَ عليهم فرعون الذي ذاقوا من أذاه وشره ما لم يذوقوه من قبل ولا من بعد، لأنه لم يكن أشقى ولا أطغى منه ولنستمع إلى الآيات الكريمة في سورة القصص[1] في قوله تقدَّست أسماؤه:

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾[2].

مدّةُ مُلْك فرعون:

عمّر فرعون مدة تزيد عن ٤٠٠ سنة في بني إسرائيل وهو يسومهم سوء العذاب فيسخرهم ويستخدمهم في أخسِّ الأعمال وأحقرها، وقد صنّفهم أصنافاً،

---

(١) سورة القصص: الآيات (٣ ــ ٦).

(٢) نبأ: خبر، علا: طغى وتجبّر، شيعاً: أحزاباً وفِرَقاً، نمُنّ: أي نعظم عليهم المِنّة والفضل، يستحيي نساءهم، أي: يتركهن على قيد الحياة فلا يقتلهن وذلك للخدمة وللأعمال المهينة.

فصنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يتولون الأعمال القذرة، ومن لم يكن أهلاً للعمل فعليه الجزية، كما قال تعالى: ﴿وإذْ نَجَّيْنَاكُمْ من آلِ فرعونَ يسومونَكُمْ سوءَ العذاب. . .﴾ الآية. فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يُفَرِّجَ عن بني إسرائيل بعث إليهم (موسى) عليه السلام لينقذهم من شر هذا الطاغية الجبار ويخلصهم من ظلمه وطغيانه، فكانت بعثة (موسى) عليه السلام رحمة لبني إسرائيل، وإنقاذاً لهم من ظلم ذلك الجبار العنيد.

الرؤيا المنامية:

ذكر (الثعلبي) في كتابه قصص الأنبياء عن (السّدي) أن فرعون رأى في منامه رؤيا أفزعته فاهتم لها واغتمّ. . رأى كأنّ ناراً قد أقبلت من بيت المقدس حتى وصلت إلى بلاد مصر، وأحاطت بدورها وبيوتها فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل دون أذى. فدعا فرعون الكهنة، والسحرة، والمنجمين، وسألهم عن هذه الرؤيا التي رآها في منامه فأوّلوها له وقالوا: سيولد في بني إسرائيل غلام يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ويكون ذهاب ملكك على يديه أيضاً، ويخرجك وقومك من بلدك، ويبدّل دينك، وقد أظلّك زمانه الذي يولد فيه. . فأمر فرعون الطاغية أن يقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل وجمع القابلات وقال لهن: لا يولد على أيديكنّ غلام من بني إسرائيل إلا قتلتنه ووكّل بهن وكلاء، فكانت القابلة تنفّذ أمر فرعون فتقتل كل مولود ذكر من أطفال بني إسرائيل خوفاً من فرعون وبطشه، وأما الإناث فكنّ لا يُقتلن بل يبقين على قيد الحياة من أجل الخدمة والتسخير، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿يذَبّحون أبناءَكم ويَسْتَحْيُونَ نساءكم﴾، وأمر فرعون كذلك بقتل الغلمان الذين هم في وقته، وبقتل مَنْ بعدهم، وأخذ جنوده يعذّبون (الحبالى) من نساء بني إسرائيل حتى كانت المرأة تسقط حملها، وأسرع الموت في الشيوخ الكبار من بني إسرائيل، فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا له: إنّ الموت قد وقع في مشيخة بني إسرائيل (أي الكبار منهم) وأنت تقتل صغارهم فيوشك أن

يقع العمل علينا، ولا يبقى أحد للخدمة غيرنا، فأمر أن يقتل الغلمان سنة، ويتركوا سنة حتى لا يهلك جميع أبناء بني إسرائيل.

متى ولد هـرون ومتى ولد موسى؟:

بعد شدة العذاب على بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم أمر فرعون ــ بإشارة رؤساء القبط ــ أن يُقتل الذكور عاماً ويتركوا عاماً، فولد (هـرون) في السنة التي لا يذبح فيها أحد فتُرك وولد (موسى) في السنة التي يذبحون فيها، فأمّا هـرون فقد ولدته أمه علانية آمنة مطمئنة، وأما موسى فقد صادفت ولادته العام الذي يذبح فيه الأطفال، فلما قرب وقت الوضع حزنت أمه واشتد غمّها فأوحى الله إليها ــ بواسطة الإلهام ــ ألّا تخاف ولا تحزن لأن هذا المولود سيكون له شأن عظيم، وسيحفظه الله تعالى من كيد فرعون ثم يجعله من المرسلين وقذف في قلبها السكينة، وأمرها أن ترضعه حتى إذا خافت عليه تصنع له تابوتاً من خشب ثم تضعه فيه وتلقيه في البحر، وألا تخاف عليه الهلاك لأنه في حفظ الله ورعايته وكفى بالله حافظاً، وكفى به ناصراً. . اقرأ الآيات الكريمة في سورة «القصص»:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾[1].

حفظ الله لموسى وتربيته في بيت فرعون:

وقد ولدته أمه خفيةً، وجعلت ترضعه وهي واثقة من حفظ الله تعالى له، فلمّا خشيت عليه من السفّاحين من زبانية فرعون اتخذت صندوقاً وجعلت فيه قطناً ثمّ وضعت فيه وليدها، وأقفلت الصندوق، وألقته في النيل، وأمرت أخته أن تتبّع أثره

(١) سورة القصص: الآيتان (٧ ــ ٨).

وقد فعلت ذلك كلّه بوحي من الله سبحانه (أي بإلهام منه وإرشاد) وهي على يقين من أن الله سبحانه سيحفظ لها هذا المولود، ويرده إليها، ولن يستطيع فرعون قتله حتى ولو أصبح بين يديه. فلما ألقته في النيل انطلق الماء به يرفعه الموج مرة، ويخفضه أخرى حتى وصل إلى بيت فرعون وبينما كانت الجواري يغتسلن ويستقين أبصرن هذا (التابوت) فأخذنه وظنّ أن فيه مالاً، فحملنه على حالته حتى وصلن به إلى سيدتهن (آسية) زوجة فرعون فلما فتحته رأت فيه الغلام، فألقى الله تعالى محبته في قلبها، فلما جاء زوجها (فرعون) ورأى الغلام أراد قتله وطلب الذبّاحين ليذبحوه فالتمست منه أن يتركه لها لأنها لم تكن تلد وقالت كما قصّ القرآن الكريم:

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ الآية[2].

فقال لها فرعون قرة عين لك أمّا لي فلا حاجة لي فيه، قال بعضهم: لو قال «قرة عين لي» لهداه الله به إلى الإسلام كما هدى (آسية) ولكن رفض ذلك فلم يسعد ولم يهتد بل بقي شقياً.

تحريم المراضع على موسى:

وعاش (موسى) في بيت فرعون عند (آسية) التي استوهبته من فرعون فوهبه لها، وقد ألقى الله محبته في قلبها، كما أحبّه فرعون وعطف عليه، وهذا تصديق لقول الله تعالى:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[1].

وأخذت (آسية) تبحث له عن مرضع لتكون له ظِئراً ترضعه وتربيّه، فكان يمتنع عن قبول ثديها، واشتد به الجوع واشتد به البكاء وهو لا يقبل ثدي أحد من المرضعات حتى خشيت عليه امرأة فرعون من الهلاك فأخذت بنفسها تفتش له عن

(٢) سورة القصص: الآية (٩).

(١) سورة طه: الآية (٣٩).

مرضع، ورأت أخت موسى ذلك وهي ترقبه من بُعْد فجاءت إلى آسية امرأة فرعون وعرضت عليها أن تأتي لها بامرأة مرضعة، أمينةٍ ناصحة، تتعهد هذا الرضيع مقابل أجرٍ لها فقالت لها امرأة فرعون: ائتيني بها فإن أخذ ثديها أكرمتها بأنواع من الإكرام فانطلقت حتى جاءت إلى أمه فأخبرتها الخبرَ، فأتت أمه فلما رأته كادت تقول هذا ابني لولا أن ثبّتها الله حتى لا يشعر آل فرعون بأن هذه هي أمه، فلما وضعته في حجرها التقم ثديها وأخذ يرضعه بنهم ولَذّة حتى ارتوى وملأ جنبيه، ففرحت (آسية) فرحاً عظيماً وطلبت منها أن تمكث في القصر عندها لترضع لها هذا الغلام، ووعدتها بأن تعطيها أنواع الهدايا وتكرمها بأنواع الإكرام، فأظهرت (أمّ موسى) العِفّة وقالت لها: إن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي وأتعهده بالعطف والرعاية كما أتعهد ولدي وأنا لا أستطيع أن أدع بيتي وأولادي من أجل هذا الغلام فرضيت (آسية) أن تدفعه لها على أن تأتي به في كل فترة لتراه ثم تعيده لها، لأنه قد ملك حبُّه قلبها، وهكذا حقّق الله وعده فردّ موسى إلى أمه لترضعه وهي آمنة مطمئنة تحت كنف فرعون ورعايته، واقرأ الآيات الكريمة:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

قتل موسى للقبطي وهربه إلى أرض مدين:

شبَّ موسى في بيت فرعون، وعاش فيه معزّزاً مكرماً، وكان يعيش عيشة أبناء الملوك فيركب مراكب فرعون، ويلبس ما يلبس فرعون، وكان الناس يدعونه

(١) سورة القصص: الآيات (١٠ ــ ١٣).

(موسى بن فرعون) فيحترمونه ويعظمونه من أجل أنه ابن الملك. وترعرع موسى حتى إذا بلغ أشده دخل ذات يوم من الأيام المدينة، وبينما هو يتجول في طرقها ـ وكان الوقت وقت ظهيرة والأسواق قد أغلقت والناس في بيوتهم قائلون ـ إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل والآخر قبطي من آل فرعون، وهما يتضاربان ويتهاوشان، وقد اعتدى القبطي على الإسرائيلي فلمّا مرّ موسى استغاثه الإسرائيلي ليخلّصه من شر ذلك القبطي فأقبل نحوه موسى يريد أن يمنعه عن الاعتداء ويدفع الأذى عن الإسرائيلي فوكزه (أي ضربه بجُمْع يده) فقضى عليه وخرّ القبطي على الأرض ميتاً لا حراك به، ولم يرد موسى قتله إنما أراد إبعاده فكانت القاضية، فحزن موسى على قتله، وندم على ما حدث، وتنحّى يستغفر الله ويطلب منه الرحمة والغفران، ولم يكن أحد قد رآه حين قتل القبطي إلا الله تعالى والإسرائيلي، فلما قتله أصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى الأقباط فرعون وقالوا له إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلاً منا، فخذ لنا بحقّنا، ولا تتساهل معهم فيجرءوا علينا فقال لهم: ائتوني بقاتله وبمن يشهد على قتله، فبينما هم يطوفون يبحثون عن قاتله ويتلمسون الأخبار إذ مرّ موسى عليه السلام فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه الإسرائيلي على خصمه الفرعوني فجاء موسى مغضباً وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، ولكنّ الإسرائيلي ظنّ أنه يريده لأنه رأى في وجهه آثار الغضب وسمعه يقول: ﴿إنّك لَغويّ مُبينٌ﴾ فظنّ أنه يريده ليبطش به فقال له: ﴿يا موسى أتريدُ أن تقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس؟﴾ فسمع ذلك الفرعوني كلامه فتركه وذهب فوراً فأخبر جماعته بأن موسى هو الذي قتل القبطيّ بالأمس، وخبّرهم بما سمع من الإسرائيلي، فذهبوا إلى فرعون وأخبروه بالخبر، فأمر جنده أن يبحثوا عن موسى ويأتوه به ليقتله حتى لا يتجرأ بنو إسرائيل على قتل أحد، فذهبوا يفتشون في طرقات المدينة عنه، وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه وهو (حزقيل) فأخبر موسى بالخبر وأمره أن يخرج من أرض مصر لأن الجماعة يبحثون عنه يريدون قتله، فتوجّه موسى إلى أرض (مدين) ودعا ربّه أن يهديه الطريق

وينجّيه من شرّ فرعون، ويأخذ العيون عنه حتى لا يبصره أحد من أعدائه اقرأ الآيات الكريمة في سورة القصص.

قال الله تعالى حكاية عن موسى:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

تزوج موسى بابنة شعيب ورعيه الغنم:

وخرج كليم الله من أرض مصر فارّاً يريد النجاة، وتوجه نحو أرض مدين ماشياً على قدميه يتلفت خشية أن يدركه أحد من آل فرعون، ولم يكن معه زاد فكان يأكل ورق الشجر وبقي يمشي مسيرة ثماني ليالٍ حتى وصل إلى أرض مدين، فجلس تحت شجرة وقد أنهكه الجوع والتعب قال (ابن عباس): (خرج موسى من مصر إلى مدين وبينهما مسيرة ثماني ليالٍ، لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإنّ بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل تلمع من داخل جوفه، وإنّه لمحتاج إلى شِق تمرة). وبينما هو جالس للاستراحة أبصر ابنتين ترعيان الأغنام تريدان سقي

(١) سورة القصص: الآيات (١٥ ــ ٢١).

أغنامهما من تلك البئر الكبيرة التي يسقي منها الرعاة، ولكنهما كانتا تحبسان الغنم لئلا يختلط بغنم الآخرين فأشفق عليهما وسألهما عن سبب تعهدهما لرعاية الغنم بأنفسهما فأخبرتاه بأن أباهما شيخ كبير وليس عنده من الأولاد من يرعى له هذه الأغنام ولذلك فإنهما يتعهدان رعايتها وسقايتها، فسقى لهما ثم جلس بجانب الظل يدعو ربه، اقرأ الآيات الكريمة:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1].

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» أن الرعاة كانوا إذا فرغوا من السقي وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيُشربان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم ردّ الحجر، وكان لا يُرفعه إلا عشرة فرفعه موسى عليه السلام وحده وردّه وحده، فلما رجعت الفتاتان إلى أبيهما أخبرتاه بخبر موسى وبقوته وطلبتا منه أن يكرمه على هذا الصنيع الجميل وأن يستأجره لرعاية الغنم فأرسل واحدة منهن لتدعوه إلى أبيها فجاءته وهي تمشي على استحياء فقالت له: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، وإنما صرّحت له بهذا لئلا يوهم كلامها الريبة، وهذا من تمام حيائها وعفتها وصيانتها فلما جاءه وقصّ عليه قصته قال له شعيب ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ ثم زوّجه بابنته على رعاية الغنم. قال (ابن كثير): وقد اختلفوا في هذا الشيخ مَن هو؟ فقيل: إنه (شعيب) عليه السلام وهذا هو المشهور عند الكثيرين ونصّ عليه الحسن البصري وهو منقول عن مالك بن أنس، وقد عاش شعيب عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه وليس هو شعيب النبي

(١) سورة القصص: الآيتان (٢٣ ــ ٢٤).

الذي أرسل إلى أهل مدين، والرأي الأول أرجح وهو الذي عليه الكثيرون من أهل التفسير.

ومكث موسى عليه السلام في أرض مدين بعد أن تزوج بابنة شعيب وهو يرعى الغنم حتى أتم المدة وهي عشر سنين. وقد روي أن النبي ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: « أكملهما وأفضلهما ». ومن هنا نعلم أن موسى عليه السلام اشتغل برعاية الغنم لمدة عشر سنوات وكانت الرعاية هي المهر الذي دفعه موسى لقاء تزوجه بابنة شعيب، وإذا كان «موسى بن عمران» قد رعى الغنم فليس عيباً على أحد من الناس أن يشتغل بأمثال هذه الحِرَف، كيف وقد كان سيد الخلق محمد ﷺ يرعى الغنم، فقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ما من نبي إلا ورعى الغنم، قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟! قال: حتى أنا كنت أرعاها لقريش على قراريط»(١). والحكمة في رعاية الغنم من جهة الأنبياء والمرسلين هي أن يتعوَّدوا على السكينة والتواضع، وليكون ذلك مقدمة لسياسة الأمة وقيادتها كما يقود الراعي غنمه، ويتعهدها بما يصلح شأنها، وهكذا الأنبياء الكرام انتقلوا من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

رجوع موسى إلى مصر وتكليم الله سبحانه له عند جبل الطور:

بعد أن أمضى موسى عليه السلام السنوات العشر، في أرض مدين حنّ قلبه إلى وطنه فعزم على الرجوع إلى أرض مصر مع أهله وولده، وبينما هو في الطريق في ليلةٍ مظلمة باردة تاه في الطريق فلم يهتد إلى السلوك في الدرب المألوف وجعل يوري زناده فلا يقدح شيئاً، واشتد الظلام والبرد وكانت امرأته حاملاً وقد قرب أوان وضعها فتحيّر وقام وقعد، وأخذ يتأمل في الأفق لعله يرى شيئاً فيخرجه من هذه الحيرة، ثم أخذ يتسَمّع طويلاً هل يسمع حِسّاً أو حركة، فبينما هو كذلك إذ آنس

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإجارة ٣/١١٦ بلفظ «ما بعث الله نبيّاً إلّا رعي الغنم...» الحديث، ورواه ابن ماجه رقم ٢١٤٩.

من جانب الطور نوراً فحسبه ناراً ﴿فقال لأهلِهِ امكُثُوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكُم منْها بقَبسٍ أو أجدُ على النارِ هدى﴾ فلما وصل قريباً من جبل الطور رأى نوراً عظيماً ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك، فتحيّر موسى وارتعدت فرائصه فسمع خطاب الله عز وجل يأمره أن يخلع نعليه ثم يدخل ذلك الوادي المقدس حتى يقترب من جبل الطور فإن الله سبحانه وتعالى سيكلمه ويجعله رسولاً ثم يرسله إلى فرعون ليبلغه رسالة الله، اقرأ الآيات الكريمة من سورة طه:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ...﴾[1].

وهكذا نُبّيء موسى وكلمه ربه عند جبل الطور المسمى (طور سيناء) وأعطاه آية تدل على صدق نبوّته ألا وهي معجزة (العصا، واليد) ثم أمره أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى الله فطلب موسى من ربه أن يبعث معه أخاه (هرون) ليكون معيناً له على تبليغ الرسالة كما قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2].

قال بعض المفسرين: لما قصد موسى إلى تلك النار وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج فوقف متعجباً فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمره أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً لتلك البقعة المباركة، ثم أمره ثانياً أن يلقي ما في يمينه فألقاها فإذا هي حية تسعى، ثم أمره أن يدخل يده في جيبه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء لها نور كنور الشمس.

---

(١) سورة طه: الآيات (٩ ــ ١٤).
(٢) سورة القصص: الآيات (٣٣ ــ ٣٥).

موسى يدخل مصر ويدعو فرعون إلى الإيمان بالله تعالى:

ورجع موسى بعد أن كلّمه ربّه فسار بأهله نحو مصر حتى وصلها ليلاً، وأوحى الله سبحانه إلى أخيه (هارون) يبشّره بقدوم (موسى)، ويخبره أنه قد جعله وزيراً له ورسولاً معه إلى فرعون، واجتمع موسى بهارون وانطلقا إلى فرعون، فطلب موسى من البواب أن يأذن له بالدخول على الملك (فرعون) فقال له: وماذا أقول لفرعون فأجابه موسى بقوله قل له: جاءك رسول ربّ العالمين، ففزع البواب من هذه الكلمة ودخل على سيده وأخبره بما قاله وما سمع وقال له: إن بالباب إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال فرعون: أدخلوه، فدخل موسى ومعه هارون إلى فرعون ودعاه إلى الله وبلّغه رسالة ربه فاستهزأ به فرعون وقال: هل هناك إلّه غيري؟ ثم تحقق فعلم أنّه موسى الذي تربى في بيته ثم كان من أمره ما كان فقال له فرعون كما قص القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[1].

موسى والسحرة عند فرعون:

ومضى موسى يشرح له رسالة ربه، وأخذ فرعون يتهدده ويتوعده بالسجن والتعذيب والتشريد فقال له موسى: أولو جئتك بشيء بيّن؟ فقال: وماذا عندك؟ فألقى العصا فإذا هي ثعبان مبين، وأدخل يده إلى صدره ثم أخرجها فإذا بها كأنها قطعة من نور الشمس مضيئة، ففزع فرعون لهذا ودعا جماعته واستشارهم فأشاروا عليه أن يجمع السحرة ليبطلوا ما جاء به موسى لأنهم ظنوا أنه من قبيل السحر،

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (١٨ ــ ٢٤).

فاجتمع السحرة عند فرعون فطلب منهم فرعون أن يجمعوا قواهم ويوحّدوا هدفهم ليبطلوا ــ بعزيمتهم ــ سحر موسى وأغراهم بالمال والمنصب وأن يجعلهم من خاصته فيما إذا تمكنوا على موسى وغلبوه، ثم كانت النتيجة بعد تداول بين السحرة أن طلبوا من موسى أن يلقي ما معه أو يبدأوا هم بالإلقاء اعتزازاً منهم بالنفس واعتقاداً بالغلبة.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ. . .﴾[1].

ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم، وقالوا مغترين: ﴿بعزّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون﴾ ونظر موسى وإذا بهذه الحبال والعصيّ كأنها حيّات وثعابين، فهاله أمرها، وأوجس في نفسه خيفةً منها، ولكنّ الله ثبّته أمام ذلك الجمع الزاخر، وأوحى إليه أن لا تخف فإنك أنت المنصور، وأمره أن يلقي العصا فإذا هي تبتلع كل ما قذف به السحرة من زور وبهتان ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى قُلنَا لا تَخَفْ إنّكَ أنتَ الأعلى. وألْقِ ما في يمينكَ تلقفْ ما صنعوا، إنما صنعُوا كيدُ ساحر، ولا يُفلحُ الساحرُ حيثُ أتى﴾.

يذكر المؤرخون: أن موسى عليه السلام لما ألقى العصا، انقلبت إلى حية عظيمة لها عنق طويل، وشكل مفزع هائل، حتى إن الناس هربوا فزعاً منها، وقد أقبلت هذه الحيّة على الحبال والعصي فجعلت تلقفها في أسرع ما يكون، والناس في فزعٍ واضطراب، وفي دهشة واستغراب، وكان أول من أذعن للحق وأعلن إيمانه إنما هم «السحرة» الذين أتى بهم فرعون لينصروه، ويتغلبوا على خصمه موسى عليه السلام.

---

(١) سورة الأعراف: الآيات (١١٥ ــ ١١٩).

آمن السحرة وسجدوا لله عزّ وجل، وأقرّوا بالوحدانية له، لأنهم أيقنوا أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا زور ولا بهتان، وإنما هي آية من آيات الله الباهرة، أظهرها على يد رسوله (موسى) لتكون برهاناً على صدقه، وعرفوا أن ذلك ليس بطاقة إنسان ولا قدرته، ، وإنما هي القوة الإلهية التي تصنع العجائب فخرّوا لله ساجدين وقالوا: ﴿آمنا بربِّ العالمينَ. ربِّ موسى وهٰرون﴾.

علم فرعون أنه لم يُعْجز موسى، ولكنّ موسى أعجزه، فأراد أن يستر هزيمته، ويستعيد هيبته، فقال للسحرة ــ وكان صاحب مكر وخداع: ﴿إنّه لكبيركُمُ الذي علّمكُمُ السحر فلسوفَ تعلمونَ. لأقطّعَنْ أيديَكُم وأرجلكُم من خلافٍ ولأصلبنّكُم أجمعينَ﴾.

توعّد السحرة بالقتل والصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، واتهمهم بالتآمر مع موسى، مع أنه يعلم علم اليقين، أنّ موسى لم يعرفهم ولم يجتمع معهم من قبل، لأنه كان مقيماً في أهل مدين، فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السحر؟! ثمّ إن موسى لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، وإنما استدعاهم فرعون من أنحاء البلاد ليبطلوا دعوى موسى عليه السلام، ولكنَّ المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر وإن كان لا يغني أمام الحق شيئاً.

أمّا السحرة فقد ثبتوا على الإيمان، ولم يبالوا بوعيد فرعون وتهديده، بل صرخوا في وجهه صرخة الإيمان والبطولة، متحدّين لفرعون وبطشه وجبروته:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة طه: الآيتان (٧٢ ــ ٧٣).

قال سعيد بن جبير: «لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده، بل صدعوا بالحق في وجهه»[1]. ولقد نفذّ فرعون ما هدّدهم به فصلبهم وقطّع أيديهم وأرجلهم، وقتلهم شر قتلة ومع ذلك لم يُثنهم ذلك عن الإيمان بالله، فماتوا شهداء أبراراً رضوان الله عليهم أجمعين، قال ابن عباس: (كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة).

تمادي فرعون في ضلاله:

رأى فرعون الآيات الباهرة، والبراهين القاطعة، التي تدل على صدق موسى عليه السلام، ولكنه تمادى في كفره، وأصرّ على عناده، معرضاً عن الآيات البينات التي جاء بها موسى كليم الله، وأغراه قومه بموسى ومن آمنَ معه، لائمين له منكرين عليه ترك موسى وقومه يفسدون في الأرض، فسكّن فرعون روع القوم، واعداً إيّاهم بأن يقتل قوم موسى، ويستحيي نساءهم معتزاً بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان، ثمّ أتبع القول بالعمل، فضجّ بنو إسرائيل بالشكوى مما حاق بهم من الحيف والظلم، فأوصاهم موسى بالصبر وبشّرهم بالنصر. ووعدهم حسن العاقبة، اقرأ هذه الآيات الكريمة:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١/٢٥٦ للحافظ ابن كثير.

(٢) سورة الأعراف: الآيات (١٢٧ ـ ١٢٩).

ابتلاء آل فرعون بتسع آيات:

لمّا أخذت فرعون العزّة بالإثم، وعتا عن أمر الله تعالى، وتمادى في تكذيب موسى، وإيذاء بني إسرائيل، أمر الله تعالى موسى أن يُعلم فرعون وقومه بأنه سيوقع عليهم العذاب الشديد، جزاء تكذيبهم وامتناعهم عن إطلاق بني إسرائيل، فكانوا كلّما وقع عليهم العذاب جاءوا إلى موسى يطلبون منه أن يسأل ربه أن يرفع عنهم العذاب، ووعدوه بالإيمان وعدم إيذاء أتباعه المؤمنين، فإذا كشف الله عنهم ما نزل بهم، عادوا إلى طغيانهم، وغدروا بعهدهم، وتمردوا على الله.. وقد أرسل الله عليهم أنواعاً من العذاب، وصنوفاً من البلاء، وكانت هذه بمثابة (إنذار) لهم من الله تعالى ليعودوا إلى رشدهم، ويثوبوا إلى صوابهم.

وأظهر هذه الابتلاءات الآيات التسع التي أرسلها الله على قوم فرعون، وهي:

١ ـ (القحط والجدب) وهو الذي عبر عنه القرآن بـ (السنين) وهي أعوام الجدب التي أصابتهم حيث لا يستغل فيها زرع، ولا ينتفع بضرع.

٢ ـ (النقص من الثمرات) وهي قلة الثمار من الأشجار بسبب الجوائح والعاهات.

٣ ـ (الطوفان) وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: المراد فيضان نهر النيل عليهم.

٤ ـ (الجراد) وقد أرسله الله على آل فرعون بشكل غير معهود فكان يغطّي الخضراء ويحجب ضياء الشمس لكثرته، ولكنّ لا يترك لهم زرعاً ولا ثماراً.

٥ ـ (القُمّل) وهو السّوس الذي يفسد الحبوب، وقيل: هو القمل المعروف، وقيل: هو (البعوض) الذي أقضّ مضاجعهم ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

٦ ـ (الضفادع) وهي معروفة وقد كثرت عندهم حتى نغّصت عليهم عيشهم حيث كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، وتقفز على فرشِهم وملابسهم.

٧ ــ (الدم) وهو من الآيات الواضحة، فقد استحال الماء لهم دماً فلا يستقون من بئر ولا نهر إلا انقلب إلى دم في الحال، ولم ينل بني إسرائيل شيء من ذلك بالكليّة.

٨ ــ (العصا) وقد تقدّم أنها كانت من معجزات موسى ﷺ حيث تنقلب إلى حيّة تسعى.

٩ ــ (اليد) إذ كان يضع يده في جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء آية أخرى.

اقرأ قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ . . .﴾[1].

واقرأ قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[2].

والمقصود أن الله أرسل على آل فرعون أنواعاً من العذاب الدنيوي العاجل، فأرسل عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم القمّل، ثم الضفادع، ثن الدم، آيات مفصلات، فكانوا كلّما شاهدوا آية أظهروا الأسف والندم، وجاءوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرجز والعذاب، فإذا رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرّ مما كانوا عليه، حتى كانت الآية الكبرى التي لم ينج منها أحد من فرعون وجنوده، ألا وهي الغرق في البحر:

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان (١٠١ ــ ١٠٢). (٢) سورة الأعراف: الآيات (١٣٠ ــ ١٣٣).

﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾[1].

هلاك فرعون وجنوده:

تمادى فرعون في كفره وعناده، ومخالفته لنبي الله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، ولم تنفعه النّذر، فأوحى الله إلى موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلاً، ويذهب بهم إلى أرض فلسطين، فتجهَّزَ موسى ومن معه وكانوا يزيدون على (٦٠٠) ألف شخص غير الذرّية، فخرج بهم في الليل وساروا في طريق البحر الأحمر ـ على خليج السويس ـ وأخذوا يَجِدُّون السير، واستيقظ فرعون فلم يجد موسى ولا بني إسرائيل حيث خلت منهم بلاد مصر، فجهز جيشاً عرمرماً حتى قيل: كان في خيوله مائة ألف فرس، وكانت عدة جنوده تزيد على مليون وستمائة ألف[2] جندي، فلحقهم بالجنود وأدركهم في اليوم الثاني مع طلوع الشمس، وتراءى الجمعان فشعر بنو إسرائيل بالخطر وأيقنوا بالهلاك، فالبحر أمامهم والعدّو خلفهم، ولم يبق بينهم وبين الموت إلاّ ساعات أو لحظات، حين ذاك ضجّوا بالعويل والصياح وقالوا: يا موسى إنّا لمدركون، فسكّن موسى روعهم، وأزال خوفهم فأخرج عصاه وضرب به البحر فانفلق بقدرة الله، فكان كل فرق كالطود العظيم، فسار موسى ومن معه على سطح البحر ـ بعد أن أصبح يابساً ـ مسرعين مستبشرين بعد أن رأوا هذه الآية العظمى، التي تحتار لها عقول الناظرين، فلما جاوزوه وخرج آخرهم منه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون ووصوله إلى البحر، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان حتى لا يسلكه فرعون وجنوده، فأوحى الله إليه أن يترك البحر على حاله لأنه يريد إغراقهم فيه ﴿واترك البحرَ رهْواً إنهم جندٌ مغرقون﴾. رهواً: أي ساكناً على هيئته التي هو عليها. فلما وصل (فرعون) رأى هذه الآية الباهرة، ففزع وخاف أن يسلكه، ولكنّه أظهر لجنوده التجلّد والشجاعة ثم خاطبهم بقوله: (انظروا كيف انحسر البحر لي، لأدرك عبيدي

(١) سورة الزخرف: الآيتان (٥٥ ـ ٥٦). (٢) ذكر هذه الرواية ابن كثير في البداية والنهاية ١/٢٥٣.

الأبقين من يدي، الخارجين عن طاعتي وعبادتي، لأردّهم إلى مملكتي مقهورين مدحورين). وأخذ يشجع الجند لاقتحام البحر أمامه من أجل أن يفوز بالنجاة هو. ولكن هيهات فقد فات الأوان واقتربت ساعة الأجل، وجاء ملك من السماء فقاد فرس فرعون جهة البحر، فلمّا رأته الجنود قد سلك البحر، اقتحموا وراءه مسرعين، فلمّا أصبحوا جميعهم فيه أوحى الله إلى موسى أن اضرب البحر بعصاك فضربه فارتطم عليهم، وعادت أمواجه هائجة كما كان، فلم ينج إنسان. اقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾[1].

وغرق الجيش جميعاً، وأمّا فرعون فلمّا أصبح بين الأمواج على وشك الدّمار والغرق، أعلن إيمانه واستسلامه:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2].

فلم ينفعه إيمان ولا توبة بل هلك مع الهالكين إلى غمرات الجحيم.

بنو إسرائيل في أرض التيه:

لما أهلك الله فرعون وجنوده، ونجّى بني إسرائيل من العذاب المهين، أمره أن يتوجه بهم إلى (بيت المقدس) فخرجوا حتى إذا كانوا في الطريق عطشوا عطشاً شديداً، فشكوا إلى موسى متذمّرين واستسقوه فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلمّا ضربه انبجست (تفجّرت) منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من الأسباط عين تجري بالماء يشرب منها، وأرسل الله لهم (المنّ والسلوى) رزقاً منه جلّ وعلا،

(١) سورة الشعراء: الآيات (٦٠ ــ ٦٦). (٢) سورة يونس: الآيتان (٩٠ ــ ٩١).

يحصلون عليه دون جهد أو تعب، ثم أمر موسى أن يدخل بهم الأرض المقدّسة، التي كان قد وعدهم الله بها على لسان نبيّه وكليمه موسى عليه السلام، فلما اقتربوا منها وجدوا فيها قوماً من الجبارين وهم من (الكنعانيين) ومن بقايا (الحيثانيين) فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس ولكنهم أبَوا ونكلوا عن الجهاد، وجبنوا عن مقابلة عدّوهم، وقالوا قولتهم الفاجرة لنبيهم الكريم:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

يذكر المؤرخون أن موسى عليه السلام كان قبل أن يطلب إلى بني إسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل من قِبَلِه أناساً يأتونه بالأخبار، ويقول المفسرون: إنهم كانوا اثني عشر رجلاً فرأوا من ضخامة أجسام أولئك القوم ما هالهم وأفزعهم، فلمّا عادوا أخبروا بني إسرائيل بما رأوا فضعفت نفوسهم وخارت قواهم، ولم يعد لديهم طاقة للقتال أو الجهاد، وكان بنو إسرائيل قد ألفوا الذلّ والهوان منذ أن كانوا في أرض الفراعنة، وتحت سلطان الأقباط لذلك امتنعوا عن تنفيذ أمر الله وجبنوا عن جهاد الأعداء فألقاهم الله في التيه، وضيّعهم في الصحراء (٤٠) أربعين سنة يسيرون ويحلّون، ويرتحلون ويذهبون ثم يرجعون إلى مكانهم الذي خرجوا منه، كما قال تعالى:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[2].

وكان ذلك عقوبة من الله تعالى لهم، حتى انقرض ذلك الجيل الذي عاش على الذل وألف الهوان وجاء من بعدهم من الأبناء الذين عاشوا في الصحراء على الحرية والعزة فدخلوا مع (يوشع بن نون) الأرض المقدسة.

---

(١) سورة المائدة: الآية (٢٤).

(٢) سورة المائدة: الآية (٢٦).

العبرة من تاريخ بني إسرائيل:

وقد أكثر القرآن الكريم الحديث عن (بني إسرائيل)، وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم، ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الطاغية الباغية، التي تقابل النعمة بالجحود، والإحسان بالعصيان، فقد أغدق الله عليهم نعمه، ونجّاهم من كيد عدوهم، وأهلك فرعون وجنوده، فما كان منهم بعد هذا الجميل والإحسان إلا أن عبدوا العجل، وتنكّروا لدعوة نبيهم موسى عليه السلام، وقتلوا الأنبياء وسفكوا دماء الأبرياء، وفعلوا ما تقشعّر له الأبدان، وكانت نهايتهم أن مسخهم الله قردة وخنازير، وغضب الله عليهم ولعنهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة ﴿ذلكَ بأنهُمْ كانوا يَكْفِرُون بآياتِ الله، ويقْتُلُونَ الأنبياءَ بغيرِ حق ذلكَ بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. ﴿وما ظلمهُمُ اللَّهُ ولكنْ كانوا أنفسَهم يظلمونَ﴾

ولو أردنا أن نستقصي جرائم بني إسرائيل (اليهود) لضاق بنا المقام، وأحوجَنا إلى مجلدات ضخمة فإن حياتهم سلسلة من الجرائم لا في حق البشرية فحسب بل في حق الأنبياء والرسل، وفي حق الذات العليّة: ذات الله تبارك وتعالى، حيث اتهموا الله عزّ وجل بأنواع من الاتهامات الشنيعة، فقد اتهموه بالبخل والشح، ورموه بالعجز والظلم:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ... ﴾[1].

وهناك حوادث ووقائع تاريخية أخرى في حياة بني إسرائيل، ضربنا صفْحاً عنها خشية الإطالة. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قصة موسى والخضر عليهما السلام:

قصَّ علينا القرآن الكريم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم، وما جرى بينهما من الأخبار المغيَّبة العجيبة، التي

(١) سورة المائدة: الآية (٦٤).

أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح «الخضر» عليه السلام، ولم يعرفها موسى عليه السلام مع أنه نبيٌّ من أولي العزم، ولله عز وجل في خلقه شؤون، فقد يُطلع المفضول على ما لم يُطلع عليه الفاضل، وهذه القصة تتناول حادثة السفينة، وحادثة قتل الغلام، وحادثة بناء الجدار، وكلُّها أنباء قرره، وأمور عجيبة.

ولنفسح المجال أمام هدي النبوة ليخبرنا ﷺ عن قصتهما بأسلوبه الرائع الممتع، فقد روى البخاري ومسلم، عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عز وجل عليه إذْ لم يرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مِكْتل فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثمَّ، فانطلق موسى: ومعه فتاه (يوشع بن نون) حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المِكْتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرَباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ قال ولم يجد موسى النَّصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ــ فقال له فتاه: ﴿أرأيت إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال: فكان للحوت سَرَباً ولموسى وفتاه عجَباً، فقال موسى: ﴿ذلك ما كنّا نبغِ فارتدا على آثارهما قَصصاً﴾ قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا هو مسجَّى بثوب فسلَّم عليه موسى فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام![1] من أنت؟ قال: أنا موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما عُلمت رُشداً ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾.. يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه علَّمنيه، وأنت على علمٍ

(١) يعني من أينَ السلام في هذهِ الأرض التي لا يُعرفُ فيها السلام؟

من علم الله علَّمكه لا أعلمه، فقال موسى ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ فقال له الخضر: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً﴾ فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوْل ـ أي بدون أجر ـ فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قومٌ قد حملونا بغير نوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إِمْراً﴾ وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسياناً، وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمكَ من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: ﴿أقتلتَ نفساً زكيَّةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكراً﴾ قال: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾؟ قال سُفيان: وهذه أشدُّ من الأولى ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدُني عذراً﴾ فانطلقا ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ﴾ فقال الخضر بيده هكذا ـ أي أشار بيده ـ فأقامه فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ قال الخضر: ﴿هذا فِراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ قال رسول الله ﷺ: يرحم الله موسى لوددتُ أنه كان صبر، حتى يقصَّ الله علينا من أخبارهما»!! أخرجه الشيخان.

تنبيه: قال العلامة القرطبي: (كرامات الأولياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء، وما ظهر على يدها حيث هزَّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهي ليبست بنبية، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام وإقامة الجدار).

وفاة موسى عليه السلام:

توفي كليم الله موسى عليه السلام بعد أخيه (هـرون) عليـه السلام في أرض التيـه، ولم يدخـل الأرض المقدّسـة ببني إسرائيـل، وإنمـا دخلهـا بهم (يـوشـع بن نون)، كما أسلفنا، وقد كان عمر موسى حين وفاته (١٢٠) سنة، وقد روى البخاري في قصـة وفاتـه حديث ملك المـوت الذي جـاءه ليقبض روحه فصكّـه مـوسى ففقـأ عينه. . وفيه يقول الرسـول ﷺ: «لو كنتُ ثَمّ لأريتكم قبـره إلى جانب الـطريق عند الكثيب الأحمر قدر رمية بحجر». صلى الله عليه وتغمده الله برحمته، آمين.

* * *

المسيح عليه السلام

ـ ٤ ـ

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[1].

من سورة المائدة الآية (٧٥)

نسبه عليه السلام:

هو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، اسمه (عيسى) ولقبه (المسيح)، ويكنى (ابن مريم) نسبةً إلى أمه مريم بنت عمران، لأنه ولد من غير أب، وهو بالعبرية (يشوع) ومعناه المخلّص، وفي الإنجيل يدعى (يسوع) بالسين المهملة بدل الشين المعجمة.

وهو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة العفيفة، المبرَّأة من الفاحشة، كما قال سبحانه:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

وهو آخر الأنبياء في بني إسرائيل، كما أن محمداً هو آخر الرسل جميعاً لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

نسبه في الإنجيل:

إذا ذكر نسب السيد المسيح (عيسى بن مريم) فإنّ النصارى يذكرون نسب (يوسف النّجار) بناءً على أنه كان عندهم يدعى (يسوع بن يوسف النجّار) وذلك

---

(١) سورة التحريم: الآية (١٢).

لأنها كانت مخطوبة ليوسف، قبل أن تحمل بالمسيح، ولمّا حملت أمر في منامه أن يمسكها ولا يشهّر بها لأنها بريئة من الدَّنَس، كما ينص على ذلك إنجيل متى صفحة (١ ــ ٢٠). وقد كان (يوسف النجار) من شباب بني إسرائيل الصالحين، عاش عيش الطهر والعفّة، خطب مريم، ولكنه لم يتمّ بينهما التقاء أو زواج، وإنما هو مجرد خطبة، بدون اتصال زوجي، وينصُّ إنجيل «برنابا» على أن يوسف النجار قد خطب مريم وأرادها زوجة له، لما رأى منها من العفة وشدَّة التدين، وقد كان هو على جانب كبير من التقى والصلاح والتدين النفسي، فلذلك رغب في خطبتها، وسنذكر إن شاء الله ما رواه الحافظ ابن كثير رحمه الله من روايات تتعلق بأمر خطبتها، وما جرى بينهما من المحاورة بعد أن حملت بالسيد المسيح عليه السلام.

نسب عيسى في الأناجيل:

ولم يُذْكَر نسب السيد المسيح إلا في الإنجيلين (إنجيل متى) و (إنجيل لوقا) فقد انفردا بذكر النسب من بين سائر الأناجيل، ومن الغريب أن نجد اختلافاً كبيراً في نسب السيد المسيح بين هذين الإنجيلين، وتناقضاً واضحاً لا يمكن معه التوفيق، ممّا يجعلنا نجزم بأنّ أهل الكتاب، يكتبون بلا تحقق، ويؤمنون بلا تثبت، ويصدّقون بكل ما يلقى عليهم من رؤساء الدين، وأنّ ما في التوراة والإنجيل قد دخل إليه ــ قطعاً ــ التحريف والتبديل كما نصّ على ذلك القرآن الكريم.

وبنظرة واحدةٍ يظهر التناقض والتعارض بين أعظم الأناجيل وأكثرها شهرة وانتشاراً عند النصارى ألا وهو إنجيل (مَتَّى) وإنجيل (لوقا).

نسبه في إنجيل لوقا:

هو يسوع بن يوسف النجار، بن هالي، بن لاوي، بن ملكي... إلى أن ينتهي النسب إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام.

نسبه في إنجيل متَّى:

أما نسبه في إنجيل (متَّى) فهو: يسوع بن يوسف النجار، بن يعقوب، بن متان، بن اليعازر... إلى أن ينتهي إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم

عليه السلام. وإذا تابعنا النسب من أوله إلى آخره نجد اختلافاً كبيراً بين الإنجيلين.

فإنجيل لوقا يقول إنّ يوسف بن (هالي).

وإنجيل متى يقول: إنّ يوسف بن (يعقوب).

وإنجيل لوقا يقول: إنه من أولاد (ناثان) بن داود.

وإنجيل متى يقول: إنه من أولاد (سليمان) بن داود.

وإنجيل لوقا يقول: إنّ آباء المسيح غير سلاطين وغير مشهورين.

وإنجيل متى يقول: إن آباء المسيح سلاطين مشهورون.

وبينما إنجيل لوقا يذهب إلى أن بين (داود) والمسيح واحداً وأربعين جيلاً نجد إنجيل متى يقول: إن بين (داود) والمسيح ستة عشر جيلاً.

ولا أدري كيف يمكن الجمع أو التوفيق بين هذه المتناقضات في كتاب مقدس، يؤمن به مئات آلاف الملايين من النصارى، اللهم إلاّ أن يكون ذلك من تحريف رؤساء الدين الذين أكد القرآن تحريفهم للكتب المقدسة!!.

من هي مريم في نظر المسلمين:

هي مريم بنت عمران، الصدّيقة البتول، العذراء الطاهرة، التي تربّت في حجر الفضيلة، وعاشت عيشة الطهر والنزاهة، والتي أثنى الله تعالى عليها في كتابه العزيز في مواطن عديدة، قال تعالى:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[1].

كان والدها (عمران) رجلاً عظيماً، وعالماً جليلاً، من علماء بني إسرائيل، وكانت زوجته (أم مريم) لا تحبل ـ كما ذكر ابن إسحٰق ـ فنذرت إن حملت لتجعلنّ ولدها محرراً لله تعالى (أي خالصاً حبيساً) لخدمة بيت المقدس فاستجاب الله دعاءها فحملت بمريم عليها السلام، فلمّا ولدت تبيّنت أن الجنين كان أنثى، وكانت ترجو أن يكون ذكراً، ليخدم في بيت الله، فتوجهت بالدعاء إلى الله كالمعتذرة أو كالآسفة:

(١) سورة التحريم: الآية (١٢).

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

ولكنّ الله تعالى تقبّل تلك المولودة بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً، وحفظها وولدَها من شر الشيطان الرجيم.

كفالة زكريا لمريم.

توفي (عمران) وابنته (مريم) طفلة صغيرة، تحتاج إلى من يكفلها، ويقوم بشأنها، فخرجت بها أمها إلى المسجد، فسلّمتها إلى العُبّاد المقيمين فيه، وكانت ابنة إمامهم ورئيسهم فتنازعوا واختلفوا فيمن يقوم بكفالتها، وكان (زكريا) عليه السلام نبي ذلك العصر، هو الذي يريد كفالتها لأنه زوج أختها ــ وقيل زوج خالتها ــ فهو أحقُّ بها، ولكنه قطعاً للنزاع وافق على الاقتراع معهم، فخرجت القرعة له، فكان الكافل لمريم هو (زكريا) والد يحيىٰ عليهما السلام.

بقيت مريم في كفالة زكريا عليه السلام، وقد اتخذ لها مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت وخدمته، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صار يضرب بها المثل في بني إسرائيل في التقى والصلاح، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة. وفي أثناء رعاية (زكريا) عليه السلام لها كان يجد أمراً عجباً.. كان يجد عندها طعاماً وفاكهة لا توجد في السوق، وليس لها وجود في ذلك الأوان، كان يجد فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فيسألها في دهشة واستغراب «أنّى لك هَذَا؟» فتجيبه: هذا رزق من عند الله، استمع إلى قوله تعالى:

﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[2].

نشأة مريم البتول:

نشأت مريم عليها السلام نشأة طهر وعفاف، وبعدٍ عن الآثام والمحرمات

(١) سورة آل عمران: الآية (٣٦).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٧).

فعاشت في جوار بيت المقدس، مكلوءة بعناية الله، محروسة بحراسته ورعايته، وكانت الملائكة تأتي إلى مريم فتخبرها بمقامها السامي الرفيع عند الله، وتبشرها باصطفاء الله لها من بين سائر النساء، وتطهيرها من الأرجاس والأدناس، وتبشرها كذلك بمولود كريم، يكون له شأن عظيم، يكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين، وتحثها على الاجتهاد في العبادة، والقنوت لله.

وهكذا نشأت مريم على الطهارة والعبادة، والبعد عن الدنس، ورذائل الأمور، اقرأ قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

البشارة بالسيد المسيح:

لمّا بلغت مريم عليها السلام مبلغ النساء، وأصبحت في السنّ الثالثة عشرة من العمر، خرجت ذات يوم من الأيام من محرابها، وسارت جهة شرقي بيت المقدس، ترويحاً عن النفس، وطلباً للراحة، فبينما هي تسير، وقد ابتعدت عن أهلها وقومها، إذ فاجأها شاب وضيء الوجه، حسن الصورة، مستوي الخلق، ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه، وارتابت في أمره لأنه ظهر لها فجأة، فظنت به الظنون، وجعلت تبتعد عنه وهي تخشى أن يهمّ بها بسوء، في مكان ليس فيه منقذ أو نصير، ثم قالت له: ﴿إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إنْ كنتَ تقياً﴾ ظنت مريم أنه بشر عادي من الرجال، عرض لها في هذا المكان.. ولم يكن في خاطرها أنه ملاك كريم، أرسله

(١) سورة آل عمران: الآيتان (٤٢ ــ ٤٣). (٢) سورة آل عمران: الآيتان (٤٥ ــ ٤٦).

الله إليها ليهب لها غلاماً زكياً، يكون له شأن عجيب، ويعطيه الله النبوة والحكمة، وإذا بالملاك هو (جبريل الأمين) عليه السلام تمثّل لها في صورة إنسان، فأزال الملك فزعها واضطرابها، وأخبرها بالحقيقة حتى تطمئن على نفسها، ثم نفخ في جيب قميصها (ثوبها) نفخة وصلت إلى رحمها، فحملت بتلك النفخة بالسيّد المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام، اقرأ الآيات:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[1].

ويذكر المفسرون أنّ الذي نفخ في جيب قميصها، وحملت بتلك النفخة إنما هو الملك (جبريل) عليه السلام فهو الذي يسمى (الروح الأمين) ويسمى (روح القدس) ويستدلون بقوله تعالى: ﴿نزلَ بهِ الرّوحُ الأمينُ على قلبكَ لتكونَ من المنذرينَ﴾، والذي نزل بالوحي على الرسل الكرام قطعاً إنما هو جبريل عليه السلام.

قال (أبو حيان) في تفسيره:

(وإنما مثّل لها الملك في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكيّة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه.. ودل على عفافها وورعها أنّها تعوّذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثّله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبْراً لعفتها...)[2].

حين ظهر لمريم بعد ذلك أنّ الذي عرض لها في خلوتها ليس بشراً إنما هو ملاك كريم، أنست واستبشرت به، ولكنّها تعجبت من قوله حين بشّرها بالغلام، فهي امرأة بكر لم تتزوج، ولم يقربها أحد من الرجال، ولا تزال عذراء وهي عفيفة لم تقارف إثماً، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجل بها:

---

(١) سورة مريم: الآيات (١٦ ــ ١٩).

(٢) تفسير البحر المحيط ٦/١٨٠.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

وقد كان جوابه لها أنها إرادة الله ومشيئته، فهو جلّ ثناؤه لا يُعجزه شيء وإذا أراد أمراً فإنّما يقول له كن فيكون:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

كم هي مدة الحمل؟:

كان عمر (مريم) حين حملت بعيسى عليه السلام ١٣ ثلاث عشرة سنة، وقد اختلف العلماء في مدة الحمل فقيل: إنها كانت ساعة، وقيل تسع ساعات، وقيل: ثمانية أشهر، وقد روي الأخير عن (ابن عباس) والصحيح أنها حملت به حملاً طبيعياً كما تحمل النساء، ووضعته كما تضع النساء.

قال (ابن كثير) رحمه الله: (ثمّ الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر، واستدلال بعضهم بقوله تعالى: ﴿فحملتهُ فانتبذَتْ به مكاناً قصِياً، فأجاءها المخاضُ﴾ فقد عطف بالفاء وهي تدل على التعقيب، فإنّ الصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ألم تر إلى قوله تعالى:

﴿ثمّ خلقنا النطفةَ علقةً، فخلقنا العلقةَ مضغةً، فخلقنا المضغةَ عظاماً، فكسونا العظامَ لحماً، ثمّ أنشأناهُ خلقاً آخرَ فتبارَكَ اللّهُ أحسنُ الخالقينَ﴾. ومعلوم أنّ بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه)[1].

وقد ذكر المفسرون أن (جبريل) لمّا نفخ في جيب درعها، نزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها.. وقد ردّ (ابن كثير) رحمه الله روايةً نُسبت إلى (أُبيّ بن كعب) مفادها أن جبريل عليه السلام إنما نفخ في (فمها) لا في فرجها وقال: إنّ هذا خلاف ما يفهم من سياق القصة في القرآن الكريم، فالقرآن يدل على أنّ الذي أرسل إليها هو الملك جبريل عليه السلام وأنّه

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٦٤.

نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى: ﴿ومريمَ ابنةَ عمرانَ التي أحصنَتْ فرجَها، فنفخْنَا فيهِ منْ روحنَا..﴾ فالضمير يعود على الفرج لا على الفم.

إتهام مريم عليها السلام:

يروى أن مريم لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من أقربائها يدعى (يوسف النجار) وكان من العبّاد الصالحين ــ وكان ابن خالها ــ على ما يروي ابن كثير، فجعل يتعجّب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج، فعرّض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء، قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إنَّ الله خلق آدم من غير ذكر وأنثى، قال لها: فأخبريني خبرك، فقالت: إنّ الله بشرني ﴿بكلمةٍ منهُ اسمهُ المسيحُ عيسى بنُ مريمَ﴾ فعرف أنها بريئة وأنّ الحمل الذي بها إنما هو بمشيئة الله وإرادته الحكيمة.

وروى السدّي بإسناده عن الصحابة أن (مريم) دخلت يوماً على أختها ــ زوج زكريا ــ فقالت لها أختها: أشَعرتِ أني حبلى؟ فقالت مريم: وشعرتِ أني أيضاً حبلى، فاعتنقتها وقالت لها (أم يحيى): إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام على يحيى، قال: وبلغني أن عيسى بن مريم ويحيى ابن زكريا ابنا خالة[1].

وقد شاع الخبر في بني إسرائيل أنّ (مريم) حامل، فما دخل على أهل بيتٍ من الهمّ والحزن كما دخل على آل بيت زكريا، حتى اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذي كان يتعبّد معها في المسجد، واتهمها آخرون بزكريا عليه السلام.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٢/٦٥ فقد ذكر الروايتين في كتابه، وفيهما عظة وعبرة، فإنَّ الله يخلق ما يشاء وهو على كل شيءٍ قدير.

ويقول (ابن جرير): إنهم أرادوا قتله ففرّ منهم فلحقوه حتى أمسكوا به ثمّ نشروه بالمنشار فقتل صلوات الله عليه بأيدي اليهود المجرمين.

ولادة السيد المسيح عليه السلام:

المشهور المستفيض أنّ ميلاد (عيسى) عليه السلام كان ببيت لحم، وأنها لمّا هربت وخافت عليه أسرعت به وجاءت إلى بيت المقدس.. وقد قصّ القرآن الكريم علينا قصة ولادته في سورة مريم.. وخلاصة تلك القصة أن (مريم) عليها السلام لما أتمت أيام حملها وهي في (بيت لحم) اشتد بها المخاض فألجأها إلى جِذْعِ نخلة يابسة، فاحتضنت الجِذْع لشدة الوجع وولدت (عيسى) عليه السلام، فقالت عند ولادتها ـ لِمَا قاستْهُ من الآلام والتغرّب، ولِمَا خافت من إنكار قومها واتهامهم لها عند رؤية وليدها ـ قالت ﴿يا ليتني متّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً مَنْسياً﴾ فقد تمنّت الموت من جهة الدين، إذ خافت أن يُظنّ بها الشر والسوء في دينها، وتعيّر بين قومها وعشيرتها.

وضعت مريم البتول العذراء طفلها، وهزّت جذع النخلة التي لا ثمر فيها، فتساقط عليها الرطب الجنيّ الناضج، فأكلت من الرطب وشربت من النهر الذي أجراه الله لها في مكان لا نهر فيه، وكان كل ذلك إكراماً من الله تعالى لها على إيمانها وصلاحها وطاعتها لله عز وجل، وعنايةً لوليدها (عيسى) عبد الله ورسوله.

وكان ميلاد السيّد المسيح عليه أفضل الصلاة والتسليم يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر كانون الأول، أي قبل ميلاد الرسول الأعظم ﷺ بما يزيد على ٦٠٠ عام. حملت مريم وليدها الصغير، وأتت به قومها تحمله على يدها، فلما شاهدوه فزعوا لهذا الحدث العظيم والخطب الجسيم وأخذوا يظنّون بها الظنون، كيف يكون لها وليد وهي لم تتزوج بعد؟ وزاد في هذا الفزع والاضطراب أنهم يعرفون قومها وعشيرتها، فهي من بيئة شريفة فاضلة وأبوها (عمران) من السادة الأشراف، بل لقد كان رئيس العلماء، وأسرتها أسرة فضلٍ وشهامة ودين، فكيف

تأتي مريم بمثل هذه الجريمة النكراء، وتقترف عمل الفاحشة؟.. وهنا سكتت مريم، وأشارت إلي وليدها الرضيع ليتكلم معهم، وليجيبهم على أسئلتهم التي وجّهوها إليها، والتّهم التي اتهموها بها، فليس أدلّ على طهارتها وبراءتها من أن يتكلم هذا الطفل وهو لم يزل بعد في المهد ويجيبهم على تلك الاتهامات والافتراءات.. اقرأ الآيات الكريمة من سورة مريم قصة ولادته عليه السلام:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1].

حياة السيد المسيح:

ولمّا بلغ الطفل من العمر ثمانية أيام حملته أمه مريم إلى الهيكل فختن، وسمّته (يسوع) يعني عيسى كما أمرها جبريل حين بشّرها به، والختان من سنن الأنبياء وهو من الفطرة، وهو شريعة سائر الأنبياء والمرسلين من عهد إبراهيم عليه السلام، وقد جاء في إنجيل (برنابا) ما يدل على ختان عيسى: «فلما تمت الأيام الثمانية حسب شريعة الرب، كما هو مكتوب في كتاب موسى، أخذا الطفل

(١) سورة مريم: الآيات (٢٢ ـ ٣٣).

واحتملاه إلى الهيكل ليختتناه، فختنا الطفل وسمّياه (يسوع) كما تسمّى من الملاك قبل أن تحبل به في الرحم»[1].

ونشأ (عيسى) عليه السلام في كنف أمه بعيدين عن بيت لحم في ربوةٍ مرتفعة ذات استقرارٍ وأمنٍ وماء معين كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

هيرودس يعزم على قتل المسيح:

في الزمن الذي ولد فيه السيّد المسيح كان هناك حاكم ظالم يسمى (هيرودس) وقد حكم البلاد بأمر (قيصر أوغسطس) وقد بلغه عن طريق بعض الكهنة أنه ولد مولود سيكون له سلطان على جميع اليهود فأمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم، وقد تفرّد بذكر هذه القصة إنجيل (متّى) وإنجيل (برنابا) وأن يوسف النجار قد أمر في منامه بأن يذهب بالطفل (عيسى) وأمه (مريم) إلى مصر خشية عليه من بطش ذلك الحاكم الجائر، فقام من فوره وأخذ الطفل وأمه وذهب بهما إلى مصر وأقاموا بها إلى أن هلك (هيرودس) ولما هلك أمر يوسف في منامه بأن يأخذ الطفل وأمه ويرجع بهما إلى بلادهما لأن الذين يطلبون قتله قد هلكوا فارجع بهما»[2].

مجادلة عيسى للعلماء:

وكان عيسى حينئذٍ قد بلغ من العمر سبع سنين، فرجع من مصر ووصل إلى الخليل، وأقام في الناصرة، وإلى الناصرة ينسب (النصارى). وعاش الصبي في النعمة والحكمة أمام الله والناس، ولما بلغ اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف النجار إلى (أورشليم) يعني بيت المقدس ليسجد هناك حسب شريعة الرب، المكتوبة في توراة موسى عليه السلام، ولمّا تمت صلواته تفقّدوه فلم يجدوه فانصرفوا إلى محل إقامتهم ظناً منهم أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم، فلم يجدوه

---

(١) إنجيل برنابا الفصل الخامس.

(٢) راجع قصص الأنبياء للنجار ص ٣٨٦.

فرجعت امه مع ابن عمها يوسف النجار إلى (أورشليم) ينشدانه بين الأقرباء والجيران فلم يجدوه، وفي اليوم الثالث وجدوا عيسى في الهيكل وسط العلماء يحاجّهم في أمر الناموس، وقد أعجب كل الناس بأسئلته وأجوبته، وقالوا: كيف أوتي مثل هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة؟! فلمّا رأته أمه عنّفته قائلة: ماذا فعلت بنا فقد نشدناك ثلاثة أيام، فأجابها: ألا تعلمين أنّ خدمة الله يجب أن تقدّم على الأم والأب، ثم نزل معهما إلى الناصرة[1].

ويسكت التاريخ عما وراء هذه الفترة من حياة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حتى بداية نبوته ورسالته، فأين كان يسوع في هذه المدة وهي سبع عشرة سنة؟!

بدء نبوّة المسيح عليه السلام:

لمّا بلغ عيسى عليه السلام من العمر ثلاثين عاماً جاء إلى (يحيى بن زكريا) عليهما السلام المسمّى عند النصارى (يوحنا المعمدان) فعمّده[2] ثم نزل عليه روح القدس (جبريل) عليه السلام، ثم إنه خرج بعد ذلك إلى البرية، وصام فيها أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب، ونزل عليه الوحي بكتاب الله المقدس المسمّى (الإنجيل) ومنذ ذلك الحين بدأت رسالة عيسى بن مريم عليه السلام.

والقرآن الكريم لم يذكر متى ابتدأت نبوّة المسيح، ولا كيف كان ذلك، ولكنّ عبارات الأناجيل اتفقت على أنّ نبوّته كانت على رأس ثلاثين من عمره وعلى ذلك جرى المؤرخون وبعض المفسرين.

ويقول علماء التوحيد: إنّ النبوّة تكون على رأس الأربعين من العمر وهذا هو الغالب أمّا (عيسى) عليه السلام فقد نبىء على رأس الثلاثين وهذه خصوصية له عليه السلام لأنه قد رفع إلى السماء قبل أن يبلغ سنّ الأربعين، والدليل على نبّوة

---

(١) نقلاً عن إنجيلَيْ (متى) و (برنابا) حول حياة السيد المسيح ودعوته.

(٢) أي: غسله غسل التوبة وهذا ما يسمى عند النصارى بـ (التعميد).

المسيح عليه السلام قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . . .﴾.

دعوة السيد المسيح:

قام السيّد المسيح يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله إليه، في مجتمع يهودي دخلت فيه انحرافات كثيرة، وخرافات وأباطيل، بسبب تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التي أنزلها الله على (موسى) عليه السلام. . وكان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وحرّفوا شريعة الله، وتلاعبوا بنصوص التوراة، وانحرفوا عن الطريق الواضح الذي أقامهم عليه نبيّهم، فبعث الله إليهم (عيسى بن مريم) ليردّهم إلى الجادّة، ويصحّح ما دخل إلى شريعتهم من تحريف وتبديل، فقام صلوات الله عليه يبلّغهم أوامر الله، ويعلّمهم ما أنزل عليه من أحكام تشريعية جديدة، منها تحليلُ بعض ما كان قد حُرِّم عليهم في شريعة موسى عليه السلام بسبب بغيهم وعدوانهم، والتي كانت عقوبة لليهود في ذلك الحين، وقد حكى الله جل ثناؤه على لسان السيد المسيح المهمة التي بعث من أجلها، فقال تقدَّست أسماؤه:

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

وقد أجرى الله على يد (عيسى بن مريم) المعجزات الباهرات تصديقاً لنبوته وتأييداً لرسالته، كما سنبين ذلك عند ذكر معجزاته عليه الصلاة والسلام.

وقد لقي السيد المسيح من اليهود تعنتاً واستكباراً، ولاقى أثناء دعوته أهوالاً وشدائد وخاصة من الكهنة ورؤساء الدين، فاصطدم معهم بجدال عنيف، حول مفاهيم الدين، وأصول الشريعة الربانية التي جاء بها من قبله (موسى) عليه السلام،

والتي حرّفها أولئك الظالمون المجرمون. فكان يحاجّ (الفريسيين) والكتبة، والكهنة[1]، فيدحضهم بالحجج الدامغة، من كهنة، وكتبة، وفريسيّين، ويدلهم على الله، ويأمرهم بالاستقامة، ويبيّن فساد طريقتهم، ويفضح رياءهم وخبثهم، حتي ضاقوا به ذرعاً، فقرّروا التخلّص منه.

مكر اليهود وتآمرهم على قتل عيسى:

اجتمع عظماء اليهود وأحبارهم، وتشاوروا في أمر المسيح، فقالوا: إنّا نخاف أن يفسد علينا ديننا، ويتّبعه الناس فقال لهم رئيس الكهنة: لأن يموت رجل واحد خير من أن يذهب الشعب بأسره، فأجمعوا على قتله، فسعوا به لدى الحاكم الروماني (بيلاطس البنطي) الذي كان حاكماً على اليهود باسم الملك (قيصر) وزيّنوا له دعواهم بأنه يريد أن يكون ملكاً على اليهود، وأنه يسعى لتقويض الحكم القائم، وأوغروا صدره حتى قرّر أن يتخلّص من (عيسى) عليه السلام بالقتل والصلب، على طريقتهم التي كانوا يفعلونها فيمن يحكمون عليه بالقتل، وعلم عيسى عليه السلام بمكر القوم به، فاختفى عن أعين الرقباء حتى لا يعلم أحد من أعوان الحاكم مكانه فيقبضوا عليه ويُسلِموه للقتل.

قالوا: ودخل المسيح إلى (أورشليم) على حمار، وتلقاه أصحابه بقلوب النخل، فقال المسيح: «إنّ بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يُسْلِمُني» ثم جعل يوصي أصحابه قائلاً لهم: «قد بلغت الساعة التي يتحول ابن البشر إلى أبيه، وأنا أذهب إلى حيث لا يمكنكم أن تجيئوا معي، فاحفظوا وصيّتي فسيأتيكم (الفارقليط)[2] يكون معكم نبياً، فإذا أتاكم (الفارقليط) بروح الحق والصدّق

---

(١) الفريسيون: هم الزهاد المنقطعون للعبادة و (الكتبة) هم كتاب الشريعة والوعاظ، و (الكهنة) هم خدمة الهيكل والمعبد.

(٢) الفارقليط: هو النبي الذي بشر به المسيح ومعناه في اليونانية أحمد ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، وفي هذا بشارة ساطعة ببعثة نبيّنا محمد ﷺ وقوله «يتحول ابن البشر إلى أبيه» هذا على حسب زعم النصارى في أنّ عيسى ابن الله، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

فهو الذي يشهد عليّ، وإنما كلّمتكم بهذا كيما تذكروه إذا أتى حينه، فإني قد قلته لكم، فأمّا أنا فإني ذاهب إلى من أرسلني فإذا ما أتى روح الحق يهديكم إلى الحق كليّة، وينبئكم بالأمور البعيدة ويمدحني، وعن قليل لا ترونني، ثمّ رفع المسيح عينه إلى السماء وقال: حضرت الساعةُ.. إني قد مجدّتك في الأرض والعمل الذي أمرتني أن أعمله فقد تمّمته»[1].

انصرف السيد المسيح مع تلاميذه إلى المكان الذي يجتمع فيه هو وأصحابه وكان من ضمن تلامذته رجل خائن يدعى (يهوذا الأسخريوطي) وهو أحد الحواريين المنافقين الذين أشار إليهم المسيح بقوله: «إن بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يُسلمني» كان هذا الرجل يعرف ذلك الموضع الذي اختبأ فيه المسيح، فلما رأى الشّرط يطلبون المسيح ليقتلوه دلهم على مكانه مقابل دريهمات معدودة جعلوها له، وكانت ثلاثين درهماً، فلما دخلوا المكان الذي فيه المسيح ألقى الله شبهه على ذلك الخائن (يهوذا الأسخريوطي) فأخذوه وهم يظنونه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه، ورفع الله سيدنا عيسى عليه السلام إليه، قال تعالى:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

وكان عمر عيسى حين رفعه الله إليه ٣٣ سنة فتكون مدة دعوته لبني إسرائيل ثلاث سنين لأن بعثته كانت في الثلاثين من عمره صلوات الله عليه.

مسألة صلب المسيح:

عقيدتنا نحن المسلمين في موضوع (صلب المسيح) هي العقيدة الصحيحة السليمة، التي أخبر عنها القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي أنّ الله عزّ وجل نجّى (عيسى) من كيد اليهود، ورفعه إليه حيّاً بجسده وروحه، وألقى شبهه على ذلك الخائن (يهوذا الأسخريوطي) الذي دلّ اليهود على مكانه، فصلبوه وهم يظنون أنه المسيح بن مريم، وكان في ذلك تكريماً لعبده

(١) تاريخ اليعقوبي نقلاً عن كتاب العقيدة الإسلامية للأستاذ حبنكة.

وعقيدة (المسلمين) في السيّد المسيح أطهر، وأكرم، وأشرف من عقيدة (النصارى) الذين يزعمون أن المسيح قد صلب، وأنّ اليهود قد أذاقوه كلّ إهانة ثمّ سمروا يديه ورجليه في الخشب ثم صلبوه وقتلوه تكفيراً لذنوب بني آدم، وفداء للبشر. ولقد شكّ (الحواريون) كما شكّ (اليهود) في أمر عيسى واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً، فمن هو المصلوب يا ترى؟ أهو (عيسى) المسيح أم (يهوذا) الأسخريوطي؟ وذلك لأن ذلك الخائن لما دلّهم على مكانه طلب من اليهود أن يدخل أمامهم، ولم يكن في ذلك المكان غير عيسى بن مريم، فلمّا ألقى الله شبهه عليه، ورفع عيسى إلى السماء، دخل اليهود فلم يجدوا غير إنسانٍ واحد هو (يهوذا) الذي ألقى الله شبه عيسى عليه فقالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وأخذوه ليصلبوه وهو يقول لهم: أنا (يهوذا) وليست عيسى فيضحكون من كلامه ويقولون: تكذب علينا أنت (يسوع) أي عيسى، فصلبوه وهم في شكٍّ من أمره وفي اضطراب واختلاف. وقد ردّ القرآن الكريم على اليهود، كما ردّ على النصارى وذكر العقيدة الحقة التي يدين بها المسلمون، والتي هي فصل الخطاب في موضوع (الصلب والفداء) فقال عز من قائل:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾.

والعجيب في أمر النصارى، أنهم يذهبون إلى القول بصلب السيّد المسيح، مع أنّهم يعتقدون بألوهيته، أو بأنه ابن الإله!.

وإذا صلب (الإله) فكيف يكون شأن الخلق؟ ولمن يا ترى ترك تدبير العالم بعد أن صلب؟ ومن هم الذين صلبوه.. أليسوا هم أشرّ خلق الله (اليهود الخبثاء) عليهم لعنة الله؟ فكيف لم يستطع الرب أن يخلّص نفسه من بين أيديهم أو ينقذ ولده من تنكيلهم وإجرامهم؟! ولقد أحسن من قال:

أَعُبَّـادَ المَسِيحِ لَنَـا سُؤالٌ   نَـرُومُ جَـوابَـهُ مِـمَّـنْ وَعَـاهُ
إذا صُلِبَ الإلَـهُ بِفِعْـلِ عَبْـدٍ   يَـهُـودِيٍّ فَـمَـا هَـذَا الإلَـهُ؟

﴿سبحانه وتعالى عمَّـا يقولون علوّاً كبيراً﴾.

موضوع الفداء للبشرية:

يقولون: إن المسيـح صلب ليخلّص بني آدم من ذنوبهم وخطاياهم!!!.

هـل هـذا صحيـح، وهـل يتفق مـع العـدالـة الإلّهيـة، والمنـطق السليم؟! ما هو ذنب (عيسى) حتى يصلب ليكون كفّارة عن ذنوب الخلائق؟ هل من العدل أن نؤاخـذ الإنسان بجـريمة غيـره؟ إذا ارتكب أخوك (مثـلاً) جريمـة القتل، أو جـريمة الـزنى، فما هـو ذنبك حتى تؤاخـذ وتعاقب على الجـريمة التي ارتكبهـا غيـرك؟ إنّ الحكم الرباني صريـح كل الصراحة ﴿ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى﴾ و ﴿كـلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينـةٌ﴾ والعدالـة الإلّهيـة تقـرّر أنّ ﴿من عمـل صـالحـاً فلنفسِـهِ ومن أسـاءَ فعليها﴾.. والمنطق السليم يحكم بأنّ العقوبة تحلّ بـالفاعـل المجرم فقط، ولكنّـه التعصّب الأعمى، والتفكيـر السقيم، الذي يفكّـر به رجـال الكنيسة، ويحشـون بـه أذهان المغفلين!.

يقول السيد (رشيد رضا) في تفسير المنار:

(أمـا النصارى فـإنهم جعلوا خاتمـة المسيـح عليـه الصـلاة والسـلام خـاتمـةً شنيعة، ومأساة مروعـة، وجعلوا الاعتقاد بحصـولها ــ على الـوجه الـذي صوّروه ــ أصلاً من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم لا يُقبـل من مؤمن إيمانـه إلا بها، ولا ينفعه عمل صالـح، ولا عبادة ولا بِـرٌّ، دون الاعتقاد بصلب المسيـح.

وقـد تلمّسـوا لتلك العقيـدة أصـلاً في (العهـد القـديم) وأسّسـوا عليـه صلب المسيـح فقـالـوا: إنّ (آدم) وهـو أول كـل البشـر قـد عصى الله تعـالى بـالأكـل من الشجـرة، التي نهـاه عن الأكـل منهـا، فصـار خـاطئـاً، وصـار جميـع ذريتـه خـطاة مستحقين للعقـاب في الآخرة بـالهلاك الأبـدي.. وقد جـاء جميـع أبناء آدم خـطاة

بذنبين، فهم يحملون وزر ذنوبهم ووزر ذنب أبيهم. ولمّا كان الله من صفاته العدل والرحمة، فمن عدله ألاّ يترك الجريمة دون عقاب وإلاّ لم يكن عادلاً، ولهذا شاء الله أن يحل ابنه، الذي هو بنفسه (الله) في رحم امرأة من ذرية آدم، ويتجسّد جنيناً في رحمها ويولد منها ــ فيكون ولدها (إنساناً) كاملاً من حيث إنه ابن لتلك المرأة، و (إلهاً) كاملاً من حيث إنه ابن الله ــ ويكون معصوماً من جميع المعاصي، ثمّ بعد أن يعيش كما يعيش الناس، ويأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويتلذّذ ويتألم كما يتلذّذون ويتألمون يأتي أعداء الله، وأعداء شريعته ويقتلونه شر قتلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويضفروا له إكليلاً من الشوك ويبصقوا في وجهه. كل ذلك ليفدي البشر من جريمةلم يقترفها هو ولا هم. . .)[1].

أقول: إنّ هذا القول باطل فإنه لم يتحقق به عدل ولا رحمة، إذ ليس من العدل أن يؤتى ببريء غير مذنب ويطوّق إثم جريمة جناها غيره. . ثمّ إنه يخالف الكتاب المقدس عندهم فقد جاء في (سفر التثنية):

«لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كلّ إنسان بخطيّته يقتل».

من هم الحواريون؟:

كان لعيسى بن مريم أصحاب وتلامذة سُمّوا بـ (الحواريّين) لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم وهؤلاء من أنصار السيّد المسيح، وهم يشبهون الصحابة الكرام الذين ناصروا رسول الله ﷺ، وقد ذكرهم القرآن وأثنى عليهم في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا

(١) انظر: تفسير المنار ٦/ ٢٥.

ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].

وكل نبيّ جعل الله تعالى له حواريين وأنصاراً كما قال عليه الصلاة والسلام.

«ما من نبيٍّ بعثه الله في أمة قبلي إلاَّ كان له من أمّته حواريون وأصحابٌ، يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره...»[2] الحديث.

وعدد الحواريين ١٢ اثني عشر رجلاً وهم كالآتي:

١ ـ (سمعان) الذي يقال له بطرس.
٢ ـ (أندراوس) أخو سمعان البطرس.
٣ ـ (يعقوب) بن زبدي.
٤ ـ (يوحنّا) بن زبدي أخو يعقوب
٥ ـ (برنولماوس).
٦ ـ (فيلبس).
٧ ـ (متّى) العشّار.
٨ ـ (توما).
٩ ـ (يعقوب) بن حلفي.
١٠ ـ (لباوس) الملقب تداوس.
١١ ـ (سمعان القانوني).
١٢ ـ (يهوذا الأسخريوطي).

والأخير هو الذي يحكى أنه انقلب، وخان السيد المسيح، ودلَّ اليهود على مكانه.

وهذه الأسماء للحواريين كما ذكرت في (إنجيل متّى) وهناك من تلامذته (برنابا) و (تداوس) وقد حذفتهما الكنيسة من الحواريين الإثني عشر، وذلك لأنهما لا يقولان بألوهية السيّد المسيح، و (برنابا) له إنجيل يسمى (إنجيل برنابا) ولا تعترف به الكنيسة اليوم لأنّ فيه ما يخالف عقيدتها، وفيه أوصاف النبيّ الأميّ الذي بشّر به السيّد المسيح عليه السلام، كما قال القرآن الكريم:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ...﴾ الآية[3].

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان (٥٢ ـ ٥٣).
(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٥٠.
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

الأناجيل عند النصارى:

الإنجيل: هو أحد الكتب السماوية الأربعة، التي أنزلها الله على رسله الكرام، والتي يجب الإيمان بها وتصديق ما فيها لأنها منزلة من عند الله، وهذه الكتب هي: (التوراة، الإنجيل، الزبور، القرآن). أمّا (التوراة) فقد نزلت على موسى عليه السلام، و(الإنجيل) على عيسى عليه السلام. و(الزبور) نزل على داود عليه السلام، و(القرآن) على خاتم الرسل محمد عليه السلام. ولفظة (إنجيل) ليست عربيّة وإنما هي عبريّة، ومعناها (البشارة)، والأناجيل المعروفة الآن لدى النصارى هي أربعة.

١ ـ إنجيل متى.
٢ ـ إنجيل يوحنا.
٣ ـ إنجيل لوقا.
٤ ـ إنجيل مرقس.

وهناك إنجيل آخر يسمى (إنجيل برنابا) لا تعترف به الكنيسة اليوم، وهو أقرب الأناجيل إلى الحق والصواب.

هل هذه الأناجيل صحيحة؟:

من المقطوع به أنّ الإنجيل الرباني الذي أنزله الله على عبده ورسوله (عيسى بن مريم) غير هذه الأناجيل الموجودة لدى النصارى اليوم، فهذه الأناجيل دخل إليها التحريف والتبديل كما نصّ القرآن الكريم، وبين هذه الأناجيل اختلاف واضح، ثمّ إنّ الله عزّ وجل أنزل إنجيلاً واحداً فكيف أصبحت أربعة أناجيل.

يقول الشيخ النجار في كتابه قصص الأنبياء:

(أين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم؟ إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وبشّر به لا يوجد الآن، وإنما توجد قصص ألّفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحذف!.

فالمسيح ابن مريم جاء إلى أصحابه بكتاب هو الإنجيل، ولكنّ الناس على

مرّ الزمان تركوا ذلك الإنجيل، وترتّب على ذلك ضياعه واستمساكهم بكتب ألّف بعضها تلاميذ المسيح، وبعضها ألفه تلاميذ تلاميذه أو مَن بعدهم، وقد كثرت الأناجيل كثرة فاحشة حتى أربت على المائة، ومعلوم أنّ الكنيسة رفضت ما يخالف رغبتها وأقرّت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم على ما هي عليه من انقطاع السّند، وعدم العلم التام بالمؤلف الحقيقي، أو المترجم ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصدق، وعلى ما بينها من الاختلاف الحقيقي المفضي إلى أن أحد الأقوال صادق، وما عداه كاذب)[1].

أما الأناجيل الحالية فهي عبارة عن مصنّفات تاريخية حول قصة حياة مريم وابنها المسيح عيسى، وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض حسب معتقداتهم، كما تتضّمن أخباراً عن (يوحنّا المعمدان) وهو يحيى عليه السلام.

ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في حياة عيسى عليه السلام، وإنما كتبت بعد رفعه إلى السماء.

١ ـ فإنجيل (متّى) وهو أقدم الأناجيل عندهم وأولها كُتب بعد نهاية المسيح بأربع سنوات وقد كتب باللغة العبرية، والموجودة الآن ترجمته، ولكن من هو المترْجِم؟ وأين الأصل المتَرْجَم حتى تتم المقارنة بينهما؟ كل ذلك ليس له عندهم جواب، فأية قيمة علمية إذاً لوثيقة لا يعرف أصلها ولا مترجمها وليس لها سند متصل إلى السيد المسيح أو تلامذته؟؟.

٢ ـ وإنجيل (مرقس) كتب باللغة اليونانية بعد رفع المسيح بثلاث وعشرين سنة، وقد اختلف النصارى في تاريخ تأليف هذا الإنجيل، فقال فريق: إن الذي كتبه هو (بطرس) رئيس الحواريين، وقال آخرون: إن (مرقس) كتب إنجيله بعد موت بطرس وبعد موت بولس أيضاً وجاء في كتاب «مرشد الطالبين» أن إنجيل

---

(١) قصص الأنبياء للنجار ص ٣٩١.

مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ لنفع الأمم الذين كان تنصّرهم بخدمته، وهذا الإنجيل ينكر ألوهية المسيح.

فأنت ترى أن الشكّ قد وقع عند مؤرخي النصرانية في تعيين كاتب هذا المصنف بشكل جازم كما ثبت أن عيسى عليه السلام لم يكتب هذا المصنف ولم يُملِه فكيف تطمئن النفس إليه؟.

٣ ـ وإنجيل (لوقا) كتب باتفاق مؤرخي النصارى بعد عشرين سنة من رفع عيسى عليه السلام، وهو ليس من تلاميذ المسيح اتفاقاً، ولا من تلاميذ تلاميذه، وإنما هو تلميذ (بولس) وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية ولم ير المسيح في حياته، وكان يسيء إلى النصارى إساءات بالغة، ولمّا رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي عمد من طريق الحيلة إلى الدخول فيها، وأظهر الاعتقاد بالمسيح، وادّعى أنه صُرع وفي حال صرعه لمسه المسيح، وزجره عن الإساءة لأتباعه، ومن ذلك الوقت آمن وأرسله المسيح ليبشّر بإنجيله، وانطلت حيلته على الكنيسة، وأباح لهم أكل الميتة وشرب الخمر، وقد أتى (لوقا) في إنجيله بزيادات كثيرة عما ذكره (متّى) و (مرقس) بشكل واضح يرتاب له القارىء[1].

وهنا يقف البحث العلمي شاكاً في (لوقا) ومتهماً أستاذه (بولس) بتحريف الديانة النصرانية في أصول عقيدتها ومثبتاً أنّ هذا المصنَّف لا صلة له بعيسى عليه السلام كتابةً ولا إملاءً.

٤ ـ وإنجيل (يوحنّا) كتب بعد رفع المسيح بـ ٣٢ سنة وتزعم الكنيسة أنّ هذا المصنف من كتابة (يوحنا بن زبدي) أحد تلاميذ المسيح عليه السلام وقد أنكر جمهور كبير من محققي النصارى نسبة هذا المصنف إليه وبينوا أنه تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي، وجاء في دائرة المعارف البريطانية، التي اشترك فيها خمسمائة من علماء النصارى ما نصه:

---

(١) انظر: قصص الأنبياء للنجار ص ٤٠٠.

(أمّا إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزوّر أراد صاحبه مضادّة اثنين من الحواريين وهما القدّيسان (يوحنّا ومتّى) وقد ادّعى هذا الكاتب المزوّر في متن الكتاب أنه الحواريّ الذي يحبه المسيح . . .).

وقد انفرد هذا الإنجيل بفقرات تدل على (ألوهية المسيح) والعجيب في الأمر أنّ الكنيسة تعتمد عليه في معتقدها المخالف لأصول الديانة التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام مع علمها اليقيني بعدم صحة نسبة هذا الإنجيل إلى (يوحنا) أحد تلامذة السيد المسيح.

وقد ذكر الشيخ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» صوراً عن تناقض هذه الأناجيل الحاليّة وعن اضطرابها واختلافها بشكل يلمس فيه الإنسان عدم الوثوق بما كتب فيها فارجع إليه إن شئت فإنه دقيق ونفيس[1].

وفي الخاتمة يتضح لنا أن الأناجيل الموجودة الآن محرّفة، وأنها غير الإنجيل الذي أنزله الله، وأنها منقطعة الإسناد ومضطربة المتن ويكفي هذا لعدم الاطمئنان والوثوق بما فيها من أخبار وأحكام.

عقيدة النصارى في المسيح:

لم يختلف أحد من الناس، في شأن نبيّ من الأنبياء، كما اختلف النصارى في شأن المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام، ولم يقع جدل حول نبوّة أحد من الرسل كما وقع حول نبوّة السيد المسيح عليه السلام.

والعجيب في الأمر أنّ أهل الكتاب قد تنازعوا في شأن المسيح واضطربوا وذهبوا بين إفراط وتفريط. . فاليهود ادّعوا أنه (ابن زنى) لأنّ الولد لا بدّ أن يكون له أب، والمسيح ليس له أب فلا بدّ أن يكون ابن زنى. . والنصارى ادّعوا أنه (ابن الله) لأنه خلق من روح الله، وروح الله جزء من الإله فلا بدّ أن يكون ابن الله. .لقد

---

(١) انظر كتاب قصص الأنبياء للنجار ص ٤٠٢.

غالى الفريقان في شأن السيد المسيح فأناس جعلوه ابن الله، وأناس جعلوه ابن زنى، والكل على خطأ وضلال، والحقيقة ما قرره القرآن الكريم وهو أنه رسول من الرسل الكرام بعثه الله إلى بني إسرائيل بالهدى والبيّنات، وأمّه هي العفيفة الصدّيقة، الطاهرة البتول، التي أحصنت فرجها وكانت من القانتين، استمع إلى هذا البيان الرائع، والحق المبين في آيات الذكر الحكيم:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

فالآية الكريمة فيها ردّ على الفريقين: ردّ على النصارى في دعواهم أنه ابن الله وردّ على اليهود في دعواهم أنه ابن زنى فهو رسول وأمه صدّيقة، ثم انظر إلى هذا الأدب الرفيع الذي هو غاية في الإبداع حيث ذكر أكل الطعام ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ ليشير إلى أن الذي يأكل ويشرب هو محتاج، والإله ليس بمحتاج، والذي يتناول الطعام يحتاج إلى إخراج الفضلات، يحتاج إلى التغوط وإلى أن يدخل بيت الخلاء، فكيف يليق هذا بالإله أو بابن الإله!!

وقد ذكر لنا القرآن الكريم عقائد النصارى مفصّلة، وبيّن أنهم فرق ثلاثٌ:

١ ــ منهم من يعتقد بأنّ المسيح نفسه هو ابن الله لأنه خلق من روحه

٢ ــ ومنهم من يعتقد بأنّ المسيح نفسه هو (الله) تجسّم وتجسّد في صورة (يسوع) ونزل إلى الأرض ليخلّص الناس من آثامهم.

٣ ــ ومنهم من يعتقد بعقيدة التثليث (الأقانيم الثلاثة) الأب، والابن، وروح القدس، وأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة.

---

(١) سورة المائدة: الآية (٧٥).

جاء في كتاب قصص الأنبياء ما نصّه:

«أمّا جماعة النصارى فقد خلقوا لهم عقيدة هي أنّ الله مركب في ثلاثة أقانيم: الآب، والابن، والروح القدس، وهذه كلها واحد، فانحدر الله الذي هو الأب أو الابن ـ على اختلاف أقوالهم ـ وحلّ في مريم وتجسّد إنساناً وولد منها وهو (يسوع) إلى آخر ما يقولون.

وهذا الكلام لم يقله المسيح، ولم يعلم به، ولكنّ المسيحيّين لمّا أذاعوا المسيحية بين الوثنيّين، الذين كانوا يدينون بالأقانيم، وتجسُّدِ الآلهة والصلب والفداء، ودخلوا في المسيحية حاملين لتلك العقيدة، أحبّوا أن يوفقوا بين ما ألفوه من عقيدة، وبين هذا الدين الجديد، وأخذوا يؤلّهون المسيح ويقولون: إن الله انحدر منه (أُقنوم الابن) المتحد مع (الأب) و (الروح القدس) وتجسّد في (رحم مريم) ثم خرج إنساناً إلهاً[1].

ويتساءل المرء كيف يكون (عيسى) إلهاً مع أنه قد خرج من فرج امرأة وولد كبقية الناس؟ وكيف يكون إلهاً مع أنه كان يأكل ويشرب وينام ويتألم ويتعب ويحتاج للذهاب إلى الحمّام ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً﴾.

ولقد ردّ القرآن الكريم على النصارى باطلهم وضلالهم، وبيّن كفرهم وعنادهم، وذكر ما هم عليه من ضلال وزور وبهتان في شأن السيّد المسيح فقال جل ثناؤه:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[2].

---

(١) انظر: كتاب قصص الأنبياء للنجار ص ٤٥٤.

(٢) سورة النساء: الآية (١٧١).

وقال جل ثناؤه في سورة المائدة مؤكّداً كفرهم في تلك العقيدة الضالة:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

يؤفكُون: أي يصرفون عن الحق إلى الضلال.

وإذا كان اليهود والنصارى يعجبون من أمر (عيسى) لأنه ولد بدون أب فأمر (آدم) أعجب لأنه ولد بدون أب وبدون أم، فالذي خلق آدم من تراب وقال له كن فيكون هو الذي خلق عيسى بدون أب، وهو جلّ وعلا القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن أجل ذلك ضرب القرآن الكريم المثل بآدم فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[2].

معجزات السيد المسيح:

ومعجزات السيد المسيح كثيرة ذكر بعضها القرآن الكريم، وهي كسائر معجزات الأنبياء لا تدل على (ألوهيته) وإنما تدل على صدق نبوّته، منها: شفاء

(١) سورة المائدة: الآيات (٧٢ ــ ٧٥).

(٢) سورة آل عمران: الآيتان (٥٩ ــ ٦٠).

المرضى، وإبراء الأكمه (الأعمى) وإحياء الموتى، والإخبار عن بعض المغيّبات، والكلام في المهد إلى غير ما هنالك من معجزات، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ...﴾ الآية[1].

خاتمة: هل سينزل السيد المسيح إلى الأرض:

لم تنته مهمة السيد المسيح عليه السلام بعد، وسينزل إلى الأرض ليتمّم رسالته ويبلّغ دعوته، فهو الآن حيّ في السماء، رفعه الله تعالى إليه بروحه وجسده، وقد أخبر الصادق المصدوق عن ذلك، ونحن نؤمن بما أخبر عنه القرآن، وبما حدّث عنه الرسول المعصوم، فقد جاء في الحديث الشريف: «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حَكَماً مقسِطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية...»[2] الحديث. وسيحكم بشريعة القرآن فلا يقبل من أحد إلا الإسلام، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

* * *

(١) سورة المائدة: الآية (١١٠).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء؛ ومسلم في الإيمان رقم ١٥٥؛ وأبو داود في الملاحم برقم ٤٣٢٤؛ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ١٠/٣٢٧.

سيدنا محمد خاتم النبيين
صلى الله عليه وسلم

— ٥ —

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

من سورة الأحزاب: الآيتان (٤٥ ــ ٤٦)

محمد رسول الله ﷺ هو خاتم رسل الله جميعاً، ختم الله به النبوّة والرسالة كما ختم بالقرآن العظيم الكتب السماوية، فكان ختام مسك، إذ هو آخر المرسلين وجوداً، وأوّلهم رتبة ومنزلة، فهو سيّد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة[1].

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً»[3].

---

(١) يلاحظ القارىء أنا قد ذكرنا هنا نبذة يسيرة عن رسالة خاتم الأنبياء ﷺ ولم نفصل لأن التفصيل يحتاج إلى كتاب خاص في تاريخ حياته ودعوته صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٤٠).

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب برقم ٣٦١٠، وقال: هذا حديث حسن، ورواه أحمد في المسند.

وقال ﷺ:

«أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وما من نبيٍّ آدم فمن سواه إلّا تحت لوائي»[1].

نسبه الشريف:

هو محمد بن (عبد الله) بن (عبد المطلب) بن (هاشم) بن (عبد مناف) بن (قُصَي) بن (كِلاب) بن (مُرّة) بن (كعب) بن (لُؤي) بن (غالب) بن (فِهْر) بن (مالك) بن (النضر) بن (كِنانة) بن (خزيمة) بن (مدركة) بن (إلياس) بن (مضر) بن (نزار) بن (مَعَدّ) بن (عدنان) إلى أن ينتهي إلى (إسماعيل) بن إبراهيم عليهم السلام.

وكلُّ أجداده ﷺ هم من السادة الأشراف، ونسبه ﷺ من أشرف الأنساب، فما بعث الله نبيّاً إلا في أشرف نسب، وفي صحيح البخاري لمّا سأل (هرقل) ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله ﷺ قال: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب فأجابه هرقل بقوله: (كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها) يعني في أكرم قومها حسباً، وأشرفها قبيلة. وقد كانت ولادته ﷺ ولادة الطهر والشرف، لم يصبه شيء من عُهْر الجاهلية، وكان بنكاح صحيح يشبه نكاح الإسلام، يشهد لذلك قول النبي ﷺ: «إني خَرَجتُ من نكاح، ولم أخرُج من سفاح»[2]، وفي رواية عائشة: «ولدت من نكاحٍ غير سفاح».

ورسول الله ﷺ هو من أولاد (إسماعيل) عليه السلام وليس من أولاد (إسحٰق) وأنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم، وأمّا رسول الله ﷺ فقد كان من ذرية إسماعيل، ففي حديث مسلم: «إن الله اصطفى

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب برقم ٣٦١٨، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) الحديث أخرجه الأصبهاني في دلائل النبوة ١/ ٦٥؛ والطبراني في الأوسط وأشار إلى حُسنه.

كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كِنَانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1] وفي رواية للترمذي: «فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً».

ولادتــه ﷺ :

ولـد صلوات الله وسلامـه عليه يـوم الاثنين، الثاني عشـر ١٢ من ربيـع الأول عام الفيل، وذلك حوالي سنـة (٥٧٠) ميلاديـة أعني من ميلاد السيّـد المسيـح عليه السلام، قال (ابن كثير): وهذا ما لا خلاف فيه أنه ولد يوم الإثنين[2] وقـد روى ابن عباس قال: (ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين، واستنبىء يوم الإثنين، وخرج مهاجـراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين). رواه أحمد.

وأمّا كونه ولد عام الفيل فذلك مقطوع فيه، ولكن اختلفـوا في اليوم والشهـر، والجمهـور على أنه في الثـاني عشر من ربيـع الأول كمـا نصّ عليه ابن إسحـٰق في السيرة، وروي عن ابن عباس أنه قال: (ولد رسول الله ﷺ عـام الفيل يـوم الإثنين، الثـاني عشر من شهـر ربيـع الأول، وفيـه بُعث، وفيـه عـرج بـه إلى السمـاء، وفيـه هاجر، وفيه مات)، قال في البداية والنهاية: وهذا هو المشهور عند الجمهور[3].

وأبـوه هو (عبـد الله بن عبد المـطلب...) إلى آخر النسب الشـريف كما مـرّ سـابقاً، واسم أمـه (آمنة بنت وهب بن عبـد مناف بن زهـرة بن كلاب بن مـرة...) وهكـذا حتى آخر سلسلة نسب الـرسول صلوات الله عليـه فتجتمـع هي وزوجها في الجد السادس (كلاب بنِ مرة).

من هو ابن الذبيحين؟ :

يذكر المؤرخون وأهل السيرة أن رسول الله هـو المسمّى (ابن الذبيحين) وقـد

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الفضائل رقم ٢٢٧٦؛ والترمذي برقم ٣٦٠٩، وقـال: هذا حـديث حسن صحيـح، وانظر: جامـع الأصول ٨/ ٥٣٥.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٦٠.

(٣) المرجـع السابق: ص ٢٦٠.

ذكرنا أنه ﷺ من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وإسماعيل هو الذي أُمِر إبراهيم عليه السلام بذبحه في المنام ـ كما مرّ في قصة إبراهيم الخليل ـ فإسماعيل هو (الذبيح الأول) وأمّا (الذبيح الثاني) فهو والد الرسول (عبد الله) الذي أراد عبد المطلب ذبحه للقصة الآتية:

قصة ذبح عبد الله:

قال ابن إسحق: (وكان عبد المطلب ـ فيما يزعمون ـ نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر ثمّ بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة، فلما تكامل بنوه عشرةً وعرف أنهم سيمنعونه وهم (الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله) جمعهم ثمّ أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله عزّ وجل بذلك فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم ليكتب فيه اسمه ثم ائتوني، ففعلوا ثمّ أتوه، فدخل بهم على (هبل) في جوف الكعبة وجاء يستقسم بالقداح، فخرج القدح على ابنه (عبد الله) وكان أصغر ولده وأحبهم إليه، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله وأخذ الشفرة ثمّ أقبل به ليذبحه فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه، فقالت له قريش: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟ ثمّ دلوه على عَرّافة واسمها (سجاح) فأشارت عليه أن يقرّب عشراً من الإبل ثمّ يضرب عليها بالقداح وأن يزيد حتى يرضى الربّ، ففعل فخرج القدح على عبد الله فزاد عشراً ثم عشراً إلى أن بلغت مائة من الإبل فضرب فخرجت على الإبل، فقالت قريش: قد رضي ربك فذبح الإبل فداء لولده عبد الله ومنذ ذلك الحين أصبح يسمى الرسول «ابن الذبيحين». اهـ. سيرة ابن إسحق.

أسماء الرسول ﷺ:

هو سيدنا محمد ﷺ ويُكنى (أبا القاسم) و (أبا إبراهيم) وله عدة أسماء، محمد، وأحمد، والماحي الذي يمحو الله به الكفر، والعاقب الذي ليس بعده

نبي، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والمقفى، ونبيّ الرحمة، ونبيّ التوبة، ونبيّ الملحمة، والفاتح، وطه ويس، وخاتم النبيين[1]... وغيرها من الأسماء.

وقد بشّرت به التوراة والإنجيل وفيهما أوصافه صلوات الله عليه كما قال تعالى: ﴿الذين يتّبعونُ الرسولَ النبيّ الأميّ الذي يجدونهُ مكتوباً عندهُم في التوراةِ والإنجيل...﴾ الآية.

واسمه في التوراة (أحمد) وكذلك في الإنجيل وقد بشّر به السيّد المسيح عليه السلام كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ...﴾ الآية[2].

ولكنّ النصارى طمسوا تلك المعالم كلها، وأنكروا كل وصفٍ له في الإنجيل حسداً وبغضاً، وزعموا أن الذي بشّر به المسيح هو غير محمد وهم ينتظرونه، وأمّا ما ورد في (إنجيل برنابا) من أوصاف الرسول ﷺ فقد كذّبوا به وأنكروا الإنجيل من أصله لئلا يقرّوا بنبوته ﷺ.

قال القاضي عياض في كتابه «الشفا»: وأما اسم (أحمد) الذي أتى في الكتاب، وبشّرت به الأنبياء، فمنع الله بحكمته أن يسمّى به أحد غيره، ولا يدعى به مدعو قبله، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك، وكذلك (محمد) لم يسمّ به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه أحمد، فسمّى قوم من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم...[3].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ص ٢٥٢/٣.

(٢) سورة الصف: الآية (٦).

(٣) انظر كتاب الشفا في حقوق المصطفى للإمام القاضي عياض.

ورسول الله ﷺ هو أثر دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهمُ يتلو عليهم آياتك﴾ ولهذا قال ﷺ:

«أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أميّ أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»[1].

صفة الرسول في التوراة:

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلتُ: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: (يا أيُّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومُبشراً ونَذيراً، وحِرزاً للأمّيين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكل ليس بفظٍ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلاّ الله، فيفتح الله بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً)[2].

وروى (ابن إسحٰق) عن حسّان بن ثابت أنه قال:

(إني لغلام يفعة ــ ابن سبع سنين، أو ثمان سنين ــ أعقل ما رأيت وسمعت، إذا بيهودي في يثرب (المدينة المنورة) يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا إليه ــ وأنا أسمع ــ فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة»[3].

مرضعات الرسول:

أرضع الرسول ﷺ أمّه (آمنةُ بنت وهب) و(ثويبة الأسلمية) و(أم أيمن) و(خولة بنت المنذر) وأكثرهن إرضاعاً له (حليمة السعدية) رضي الله تعالى عنها. قدمت (حليمة) مع عشرة نسوة من بني سعد إلى مكة يلتمسن الرضعاء، في سنة

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح، وأحمد في المسند ٣/١٧٤.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن إسحٰق، والبداية والنهاية لابن كثير.

شهباء شديدة المجاعة، فعُرِضَ رسولُ الله ﷺ عليهنّ من أجل إرضاعه فما قبلته امرأة منهنّ لأنه يتيم، فكان كلما عرض على واحدة منهن تقول: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمّه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الوليد، فأمّا أمه فماذا سنرجو منها؟! وجاءت حليمة إلى (عبد المطلب) تطلب رضيعاً فقال لها: إنّ عندي غلاماً يتيماً وقد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يأخذنه، فهل لك أن ترضعيه فعسى أن تسعدي به؟ فاستشارت زوجها (الحارث بن عبد العُزّى) فقال لها: لا بأس عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه خيراً وبركة.

تقول حليمة رضي الله عنها: فما هو إلاّ أن أخذته فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي وقام زوجي إلى شارفنا فإذا بها مملوءة لبناً، فحلب لنا ثمّ شرب وشربنا حتى روينا فبتنا بخير ليلة فقال زوجي: يا حليمة والله إني لأراك أخذت نسمة مباركة ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة!!.

ثم خرجنا راجعين فقطعت الركب بأتاني حتى ما يسبقني أحد، فكلما مررت على صواحبي قلن لي: يا حليمة هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم والله إنها لهي، فيقلن والله إنّ لها لشأناً. قالت: حتى أتينا أرض سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تسرح ثم ترجع شباعاً لبناً نحلب منها ما شئنا، وترجع أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، فلم يزل الله تعالى يرينا الخير والبركة حتى بلغ سنتين، فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً قوياً[1].

حادثة شق الصدر:

بينما رسول الله ﷺ مع إخوته من الرضاع يرعى غنماً لحليمة السعدية إذ جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقّا بطنه، فجاء أخوه من الرضاع يشتدّ

(١) انظر: سيرة ابن إسحق.

نحو بيت حليمة فأخبرها الخبر، قالت: فخرجت أنا وأبوه نشتد (نسرع) نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه وقال: يا بنيّ ما شأنك؟ قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقّا بطني ثمّ استخرجا منه شيئاً فطرحاه، ثم ردّاه كما كان، قالت: فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نردّه إلى أهله قبل أن يظهر به ما نخاف عليه، قالت حليمة: فاحتملناه فقدمنا به على أمه فقالت: ما شأنكما لقد كنتما عليه حريصين، فقالا لها: لقد خشينا عليه التلف والحدث ـ وحدّثاها بقصته ـ فقالت: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، والله إنه لكائن لابني هذا شأن، ثم قالت أمه آمنة: ألا أخبركما خبره؟ قلنا: بلى! قالت: إني لمّا حملت به ما حملت حملاً قط أخف منه، فأريت في النوم حين حملت به كأنّه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم لما ولدته رأيت منه عجباً، رأيته رافعاً رأسه إلى السماء معتمداً على يديه، كأنه يريد أن يتكلم فدعاه عنكما. . .[1].

قال ابن كثير: وهذا الخبر روي من طرق أخر وهو من الأحاديث المشهورة بين أهل السير والمغازي. وقد وقعت حادثة شق الصدر لرسول الله ﷺ في صغره وعمره قريب من ثلاث سنين، وكان لا يزال عند (حليمة السعدية) كما وقعت له حادثة أخرى تماثلها قبل الإسراء وذلك حين شقّ صدره واستخرج قلبه الشريف فغسل بماء زمزم واستخرج منه حظّ الشيطان وملىء جوفه حكمة وعلماً[2].

وقد ذكر ابن إسحٰق في السيرة أن بعض الصحابة سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمّي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني (سعد بن كعب) فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان

---

(١) انظر: البداية والنهاية ص ٢٧٥.

(٢) الحديث مروي في الصحيحين.

عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني ثمّ استخرجا قلبي فشقّاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتّى إذا أنقياه ردّاه كما كان، ثمّ قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثمّ قال زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم»[1]. قال ابن كثير: وهذا إسناد جيّد قوي.

يتلخص من هذا أن (حادثة شق الصدر) للرسول الأعظم ﷺ قد وقعت له مرتين في صغره حين كان مسترضعاً عند حليمة السعدية، ومرة في كبره وذلك في ليلة الإسراء كما ثبت ذلك في الصحيحين، وليس هذا بالأمر المستغرب على قدرة الله عزّ وجل فقد أصبح الشقّ في زماننا أمراً مألوفاً، يفعله الطبيب الجراح بالشخص المريض فيستخرج قلبه ويجري فيه العملية الدقيقة ثمّ يرده إلى مكانه والمريض لا يشعر بألم أو غيره ويرجع المريض صحيح الجسم، قويّ البنية كأنه لم يكن به مرض، كما أصبحت عملية (زرع القلب) شائعة في كثير من البلدان، والعمليات الجراحية اليوم أصبحت مألوفة وعاديّة بحيث تجرى في أدقّ أقسام البدن، أفيكون شق صدر الرسول ﷺ مستحيلاً على قدرة الله عز وجل حتى ينكره بعض ضعفاء الإيمان!! ويؤلوا الحادثة تأويلاً باطلاً ما أنزل الله به من سلطان!!.

أولاد الرسول:

أولاد الرسول ﷺ سبعةٌ وكلهم من (خديجة) رضي الله عنها إلا (إبراهيم) فهو من مارية القبطية، وهم كالآتي:

١ ــ (القاسم): وهو أكبر أولاده، وبه يُكْنَى صلوات الله عليه، وقد عاش سنتين ثم مات.

٢ ــ (عبد الله): وهو الثاني من الذكور وقد مات صغيراً في حياة الرسول.

---

(١) انظر: البداية والنهاية ص ٢٧٥.

٣ ــ (زينب): وهي أكبر بناته تزوّج منها أبو العاص.

٤ ــ (رقية): تزوج منها عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٥ ــ (أم كلثوم): تزوج منها عثمان أيضاً بعد وفاة رقيّة بسنة.

٦ ــ (فاطمة الزهراء): تزوّج منها علي بن أبي طالب، وتسلسل منها آل بيت النبوّة، وكلّهم ولدوا قبل البعثة إلا السيدة فاطمة فبعد النبوّة بسنة.

٧ ــ (إبراهيم): وهومن مارية القبطية التي تزوّج بها بعد وفاة خديجة. وكل أولاده ماتوا قبله إلا السيدة فاطمة فإنها عاشت بعده ستة أشهر، رضي الله عنهم جميعاً.

قال ابن هشام: وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوّج خديجة خمساً وعشرين سنة.

ولم يعدّد رسول الله ﷺزوجاته إلّا بعد وفاة السيدة خديجة وذلك لحكم جليلة منها: (تعليمية، وتشريعية، واجتماعية، وسياسية)[1] والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

حياة الرسول في كلمات:

حياة الرسول الأعظم ﷺ تحتاج إلى مجلدات ضخمة وإلى كتابة موسعة عن نشأته ودعوته ورسالته، ولذلك فإننا سنذكر بعض النقاط ونجتزىء بها:

١ ــ نشأ الرسول ﷺ على اليتم والاغتراب وخشونة العيش وآلام الحياة فقد توفي أبوه (عبد الله) قبل ولادته وهو جنين في بطن أمه فجاء يتيماً محروماً من عطف الأب وحنانه.

٢ ــ ولما بلغ من العمر أربع سنين أرجعته (حليمة السعدية) مرضعته إلى أمّه في مكة فبقي عندها مع جده (عبد المطلب) في كلاءة الله ورعايته وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته وتوفيقه.

---

(١) انظر: هذه الحكم مفصّلة في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن» ٢/ ٣٣٠.

٣ ــ ولما بلغ من العمر ست سنين أخذته أمه (آمنة) إلى المدينة المنورة لزيارة بني النجار أخوال أبيه، فماتت وهي راجعة إلى مكة في (الأبواء) بين مكّة والمدينة فأصبح رسول الله ﷺ يتيم الأبوين.

٤ ــ بقي رسول الله ﷺ في كفالة جدّه عبد المطلب بعد وفاة أمه، وكان جدّه يحبّه ويكرمه، ويجلسه على فراشه الذي يفرش له في ظلّ الكعبة، وكان أولاده لا يجلسون على الفراش إجلالاً لأبيهم، فإذا جاء رسول الله وهو غلام جفْر وأراد الجلوس منعه أعمامه فكان عبد المطلب يقول لهم: دعوا ابني فوالله إنّ له لشأناً، ثمّ يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويلاطفه، وهذا من عناية الله تعالى به وجميل إحسانه إليه ﴿ألَم يجدْكَ يتيماً فآوى؟﴾.

٥ ــ بعد سنين من كفالة جده عبد المطلب توفي جدّه فكفله عمّه (أبو طالب) وكان الرسول ﷺ ابن ثمان سنين، وقد أوصى جده قبل وفاته به أبا طالب فكان أبو طالب يكرمه ويعطف عليه لأنه ابن أخيه (عبد الله) وتنفيذاً لوصية أبيه. وهكذا توالت النكبات على رسول الله، فلم يعتنِ به مؤدب، ولم يوجّهه مدرّب، ولكنّ الله عز وجل حفظه ورعاه، ونشّأه على كمال وخلق عظيم: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي».

٦ ــ تزوج ﷺ بخديجة لما بلغ من العمر ٢٥ سنة، وأوحى الله تعالى إليه لما بلغ ٤٠ أربعين سنة وذلك حوالي سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح عليه السلام وأمره بتبليغ ما أنزل إليه بعد ٣ ثلاث سنوات من نبوته، فقام يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولبث يدعو إلى الله في مكة وما حولها نحواً من عشر سنين حتى أذن الله له بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة).

٧ ــ هاجر الرسول إلى المدينة وجعلها مركز دعوته، وعاصمة دولته الدينيّة ــ دولة الإسلام ــ وكان ذلك بأمرٍ من الله تعالى وتوجيهٍ منه، فهاجر ومعه (أبو بكر الصدّيق) لا فراراً من زحف، ولا خوفاً من قتل، وإنما بتخطيط وتدبير من العليّ

القدير، وبذلك بدأت نواة (الدولة الإسلامية) وقام بنيان الجماعة المحمدية التي فتحت ــ فيما بعد ــ مشارق الأرض ومغاربها، ونشرت الإسلام في ربوع العالم، وأصبحت كلمة الله هي العليا.

٨ ــ ولما أكمل الله للناس دينهم، وأتمّ عليهم نعمته، وأدّى رسوله محمد ﷺ الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وفتح عليه بالنصر المبين، اصطفاه الله تعالى إليه، واختاره لجواره، فقبض روحه، وكان ذلك في يوم الإثنين من ربيع الأول لسنة ١١ من الهجرة النبوية.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

شمائله العطرة ﷺ:

إذا كان من واجب الأمم، التي تسعى لحياة العزة والكرامة، أن تتعرف على عظمائها، وقادتها، وسادتها ــ الذين خلدوا ذكرها، ورفعوا قدرها، وفرضوا احترامها على سائر الشعوب ــ وأن تنزلهم منها منزلة السيادة والريادة، فإن من واجب كل مسلم، بل من واجب كل إنسان عاقل أن يعرف شمائل هذا النبي الكريم، والرسول الهادي الأمين، الرحمة المهداة، والسراج المنير، الذي شرف الله به البشرية، ورحم به الإنسانية، بعد أن كانت تسير في متاهات الضلالة، وتوشك أن تتردى في هاوية الشقاء والجحيم.

وإذا كان فضل الله على الإنسانية عظيماً، ببعثه سيد المرسلين (محمد بن عبد الله) صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، فإن فضله على العرب أعظم وأجلّ، حيث بعثه اللَّهُ منهم تشريفاً لأمة العرب وتكريماً، فأيقظهم من السبات، وأنقذهم من الضلالة، وأحياهم بعد أن كانوا في حكم الموتى، لا وزن لهم ولا قدر، فجعلهم الله ببركة بعثته خير الأمم، وجعلهم مشاعل النور والضياء في هذه الأرض.

وإذا كانت معجزة عيسى إحياء بعض الموتى، فإنَّ معجزة محمد إخراج أمَّة من

العدم، لتتبوأ مكان الصدارة في ربوع المعمورة، وما أبدع هذا التصوير في قول أمير الشعراء:

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له
وأنت أحييت أجيالاً من العدم

وهذا ما يذكرنا به القرآن العزيز، حين يتحدث عن بعثة فخر الكائنات محمد ﷺ فيقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[1].

إي والله، لقد كان أجدادنا العرب في ضلال مبين، وأي ضلال أعظم، وأي خسران أكبر، من أن يأخذ الإنسان حجراً فينحته بيديه، ويصنعه على مزاجه، ثم يركع له ويسجد، ويعبده عبادة المخلوق للخالق، ويتخذه رباً يتضرع إليه، لجلب الرزق والشفاء، ودفع المكروه والبلاء؟؟.

وصدق الله العظيم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾[2]

والأعجب من هذا أن يتخذ الرجل إلـهاً له من العجوة، فإذا ما جاع بلعه؟!.

بل أي سفه وجهل، أكبر وأعظم، من أن يسعى الإنسان إلى ابنته ـ فلذة كبده ـ فيدفنها وهي حية تحت التراب، لا لذنب جنته، أو جرم فعلته، إلا لأنها أنثى. وهو يحب البنين ويكره البنات؟ ﴿وإذا المؤودة سئلت. بأي ذنب قتلت﴾؟ أي: ما ذنبها وما جرمها حتى دفنتموها وهي حية تحت التراب؟.

ولنقرأ هذه الآيات البيّنات، وهي تكشف لنا عن صورة قاتمة، من حياة أجدادنا العرب، في كراهتهم وتشاؤمهم من ولادة زوجاتهم للبنات:

---

(١) سورة الجمعة: الآية (٢).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٣).

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ﴾(٣)

أي: أيترك هذه الأنثى على قيد الحياة، ويلحقه الذل والهوان بسببها.

أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

من غرائب القصص والأخبار:

وإليكم هذه القصة: التي يتصدع لها القلب، وينفطر ألماً وحسرة، ولا يكاد يصدقها الإنسان، لولا أنها حقيقية واقعية: (روي أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، كان لا يزال مغتمّاً حزيناً في مجلس رسول الله عليه السلام، فقال له الرسول الكريم: «ما لي أراك أبداً كئيباً محزوناً؟ فقال: يا رسول الله إني أذنبت ذنباً في الجاهلية، وأخاف أن لا يغفره الله لي ولو أسلمت! فقال له: أخبرني عن ذنبك؟ فقال: يا رسول الله إني كنت ممن يئدون بناتهم ـ أي يقتلون البنات ـ فولدت لي زوجتي بنتاً، فتشفعت إلي امرأتي أن أتركها لها فتركتها، حتى إذا كبرت وأدركت، وصارت من أجمل البنات، خطبها الكثيرون فدخلتني الحمية، ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زواج، فاحْتَلتُ على زوجتي فقلت لها: إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابعثيها معي تتسلى، فسُرَّتْ بذلك، وزينتها بالحلي والثياب وبعثتها معي، فذهبت بها خارج المدينة إلى رأس بئر، فنظرت في البئر، ففطنت البنت بأني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وأخذت تبكي وتتضرع إلي أن أتركها وتقول: يا أبت لا تضيّع وصية أمي، قال: فرحمتها ثم دخلت علي الحمية ثانية، وغلبني الشيطان لأغسل عن نفسي العار. فأمسكت بها بقوة وألقيتها منكوسة على رأسها في البئر، ومكثت هناك حتى انقطع صوتها. فرجعت إلى بيتي وأنا مطمئن البال لأنني قد أزلت عني ذلك العار، فلما سمع الرسول تلك القصة بكى، وبكى معه أصحابه، ثم قال له: «لو كنت معاقباً أحداً بما فعل في الجاهلية، لعاقبتك على ذلك الذنب»). تفسير القرطبي ٧/٩٧.

(٣) سورة النحل: الآيتان (٥٨ ـ ٥٩).

هـذا طرف من السفـه والضلال الـذي كان عليـه العـرب في الجـاهليـة قبـل الإسلام، قال الزمخشري في تفسيره الكشاف: (كان الرجـل في الجاهليـة يحلف، لئن ولد له كذا من الأولاد، لينحرنّ أحـدهم، كما حلف عبـد المطلب). وقـال ابن عبـاس رضي الله عنهما: (إذا سـرك أن تعلم جهل العـرب، فاقـرأ ما فـوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: ﴿قد خسر الـذين قتلوا أولادهم سفهاً بغيـر علم، وحرّمـوا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾[1].

المَنَّةُ العظمى بعثة السراج المنير:

ولسنا الآن في صدد الحـديث عن جهالات العـرب، وإنما ذكـرنا شيئاً يسيراً لنعرف فضل الله علينا ببعثة المنقـذ السراج المنيـر ﷺ، ولنشكر الله على هـذه المنة العظمى حيث أخرجنا به من الظلمات إلى النور.

وأول مـا ينبغي أن نتـذكـره من سيـرة هـذا النبـي العـظيم، أن الله شـرف بـه الإنسـانية، فجعله هـادياً وبشيـراً، وداعياً إلى الله بـإذنه وسـراجاً منيـراً، وامتنَّ على المسلمين بأعظم منة، وأفضل كرامة، ألا وهي «بعثة خاتم الرسل» مـزكياً، وهـادياً، ومرشداً، ولنستمـع إلى هذه الآيات البيّنات في كتاب ربنا الجليل وهي تذكرنا بالمنة العـظمى على المؤمنين:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[2].

فبعثتـه صلوات الله عليه هي المنـة الكبرى، والنعمـة العظمى، بـل كان ﷺ الرحمة المهـداة لأهل الأرض كمـا قال صلوات الله عليـه: «إنما أنـا رحمة مهـداة» ومـا أروع هذا التصـوير الـذي صور بـه القرآن النبـي الكـريم حين قال سبحـانه في وصفه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٢٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٦٤).

صفته عليه السلام في التوراة:

ولنمعن النظر فيما وصفه الله به في الكتب السماوية، وما خصَّه به من المزايا والشمائل الحميدة، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سئل عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ـ وكان عبد الله قبل إسلامه يقرأ التوراة ـ فقال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين ـ أي حصناً للعرب ـ أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله، حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا «لا إله إلا الله» فيفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»[1].

حقاً لقد أقام الله به الملة العوجاء فأنار به البصائر، وأحيا به القلوب الميتة، وشع نور الإسلام على بقاع الأرض، فملأ الدنيا نوراً وعدلاً، وحكمة وعلماً، وعلت راية «لا إله إلا الله» ودخل الناس في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يعبدون حجارة صماء، لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، وفتح الله به أعيناً أعمتها الضلالة عن رؤية نور الحق، وصمت آذانها عن سماع كلمة التوحيد، وحجبت بصائرها عن مشاهدة دلائل وجود الله ووحدانيته، فإذا بتلك الحجب تزول، وبتلك السحب تنقشع، فيعم الهدى أرجاء الأرض، بعد أن خيم عليها الظلام قروناً عديدة، وإذا برعاة الغنم يصبحون سادة الأمم وملوك العالم، ويصبح لهم عز ودولة وسلطان.

أخلاقه وشمائله عليه السلام:

سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن أخلاق رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت تلك الكلمة الصغيرة الجامعة: (كان خلقه القرآن). ومعنى هذه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير «تفسير سورة الفتح» وأحمد في المسند ٣/١٧٤

الكلمة الرائعة أن أخلاقه وشمائله، كانت تجسيماً وتجسيداً للقرآن الكريم، فما من فضيلة دعا إليها القرآن، ولا من كرم ونبل حث عليه الدين، إلا كان متمثلاً فيه، متجسماً في أخلاقه ﷺ، فهو الأنموذج الكامل، والشخصية المثالية، والصورة الحية الناطقة، التي تجسد وتمثل آداب القرآن، وفضائله السامية، ولهذا جاء الثناء العاطر، من رب العزة والجلال على هذا النبي الكريم بقوله سبحانه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

وزيادة في الإيضاح والبيان، فقد حبا الله حبيبه المصطفى ﷺ مزايا قلّ أن توجد في أحد من البشر، مهما حلّق في سماء الفضيلة والكمال، وبلغ ذروة العز والسؤدد، تلك هي خصائصه وشمائله التي انفرد بها هذا النبي الكريم، يصورها لنا القرآن أبدع تصوير، فيقول تقدست أسماؤه:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

وصفه تعالى بأوصاف زكية سنية، جليلة فريدة، واختار له تعالى من أسمائه القدسية اسمين «الرؤوف» و«الرحيم» فقال: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾. قال ابن عباس: (لم يجمع الله بين اسمين من أسمائه، إلا لمحمد عليه السلام).

ولا عجب فذاك مقام من رفع الله قدره على العالمين، وفضله على جميع الأنبياء والمرسلين، ولنمعن النظر في هذه الآية الكريمة، فقد جاءت بأسلوب التأكيد «قد» و«لام القسم» ليذكرنا تعالى بالنعمة العظمى، والمنة الكبرى، ببعثة هذا السراج المنير ﴿لقد جاءكم رسول﴾ أي والله لقد جاءكم أيها الناس، رسول عظيم القدر، رفيع الشأن ثم قال: ﴿من أنفسكم﴾ أي: من جنسكم من البشر، رسول عربي، هاشمي، قرشي، تعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته، وطهارته ونزاهته، ثم قال تعالى مبيناً ما تحلى به هذا الرسول من جميل المناقب: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: صعب وشاق عليه ما يوقعكم في الحرج والمشقة والضيق ﴿حريص عليكم﴾ أي: حريص على هدايتكم، ووصول النفع إليكم ﴿بالمؤمنين

رؤوف رحيم﴾ أي: هو شديد المحبة، عظيم الرأفة والرحمة على أمته، لا يريد لهم إلا كل جميل وإحسان، وخير وفلاح، وهكذا أشاد بفضله القرآن، ويا له من ثناء عاطر من رب العزة والجلال على هذا الرسول المجتبى!!.

من مظاهر شفقته ورحمته بالأمة:

ولعلنا ندرك طرفاً يسيراً، من شفقة هذا النبي على أمته ورحمته بها، فقد كان يخاف عليها الهلاك. وتترقرق الدموع في عينيه إذا ذكر أمته، خوفاً عليها أن تزل أو تضل، أو يعذبها الله كما عذب الأمم قبلها، بسبب تكذيبها لنبيها، أو إعراضها عن شرعه ودينه، ذلك ما كان يحذره ﷺ ويخافه على أمته، ويبكي من أجله، وقد أمنه الله جل ثناؤه بقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾[1] فقد رفع الله عن هذه الأمة ببركته عذاب الاستئصال يعني الهلاك والدمار الذي أصاب من سبق لتكذيبهم للرسول الذي أرسل إليهم، أما نبينا عليه الصلاة والسلام، فقد بعثه الله رحمة للعالمين، فهو رحمة لجميع الخلق. رحمة للمؤمن بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب، ولنمعن النظر في التعبير القرآني البديع: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ وكأن الآية تقول: إكراماً لك يا محمد لن يهلكهم الله بعذاب الاستئصال، كما جرى على من قبلهم من الأمم السابقين، وهذا من آثار الرحمة التي عمَّ الله بها أهل الأرض، ومن مظاهر شفقته ورحمته على أمته ما أخرجه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.[2].

وتلا قول عيسى عليه السلام:

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1].

فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي، أمتي» وبكى، فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل اذهب إلى محمد ــ وربك أعلم ــ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره بما قال ــ وهو أعلم ــ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنّا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»[2]. وصدق الله العظيم: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾. اللهم اجعلنا من أمته وأحبابه وأتباعه في الدنيا والآخرة.

• • •

(١) سورة المائدة: الآية (١١٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم (٢٠٢).